صدقي اسماعيل مفكراً وأديباً

وقائع ندوة اللاذقية التي
أقامها اتحاد الكتاب العرب
حول النتاج الأدبي والفكري
لصدقي اسماعيل
في الفترة
بين ١٩ – ٢١ كانون الأول ١٩٨٢

صدقي اسماعيل: قلب بحجم الفاجع

محمد عمران

□ ١ □

ذات يوم، في شارع من دمشق، قال لي صدقي اسماعيل: ((مشكلتي مع قلبي أنه يكبر بلا حدود .)) . ثم لم اره بعدها. فالقلب الذي كبر ، حتى حجم الفاجع ، ناء بما انضاف اليه من امانة . ليتنا نتذكر الاشجار التي تموت واقفة . ولقد كان صدقي واحدة منها . ايةً شجرة كان صدقي ؟!. ندعُ الاجابة للقاطفين . نقول فقط : تنوعت الثمار ، حتى ليبدو رائعا ان تعطي شجرة واحدة ، شجرة غنية واحدة ، في مثل هذا الضيق من المدى ، هذه العطاءآت المتعددة كلها .

وما من ثمرة لم تكتمل نضجا .

ثمة الشمس دائما : شمسٌ في القلب ، وفي العقل ، معاً ، دفء ، وضوء مُشع . وما من ثمرة ، مما قدّم صدقي ، نمتْ خارج هذا الاشراق .

اية شجرة مبدعة كان صدقي ؟!.

□ ٢ □

من الجرح قـام ، وانتصب في نبض الجرح . مسيرةُ نصف قرن في اشــلاء الخرائط ، في تشظي الدم . مسيرة نصف قرن في انكسار الحلم . وما كفر بالمرآة . حين تشققت المرايا كلها ، وحدث تداخل الوجوه ، قبض صدقي اسماعيل على مرآته المكسورة ، وعبر فيها الانقاض، مشيرا الى الاعماق، الى حيث الجوهرُ كامنا في وجدان الشعب . لا يُخطىء من يشير الى الشعب . فلا ولادة تتمُ الا من ذاك الخصب العظيم. ولقد راى صدقي ذلك الخصب عبر تجربة بطله الانقى : محمد علي القابسي . رآه ، واشـار اليه . وتقدم نحوه . ودعـا المناضلين العرب أن يتقدموا :

« الشعب ينزع الى القوة والفرح . وعلى المناضل ان يكون ابدا في عنفوان الحماسة والغبطة . ان ايمانه ونضاله يعنيان شيئا واحدا هو التفاؤل بالحياة . » .

□ ٣ □

الآن ، اكثر من أي وقت ، تبدو دلالة هذه الكلمات .

إن ما هو فاجع ، على لغة صدقي ، هو الراهن الآن . كلُّ ما حولنا يشير الى طابع المأساة . ذلك ان ما يحدث ،

على مستوى التجربة العربية الراهنة ، ليس شيئًا عابرا . ما يحدث هو الفجيعة . هو ، على لغة صدقي ايضا ، سقوط العدالة واهانة الكرامة الانسانية . حين يكون الرهان على كرامة امة ، يكون النضال الاروع ضد انتهاك هذه الكرامة . والنضال لا يمكن أن يكون يائسا . لا يقترن اليأس والنضال، مثلما لا يقترن الخضوع والعنفوان . المأساة والثورة ، كما كتب صدقي ، وحدهما تقترنان . كلتاهما ، الثورة والمأساة، لا تنضج الا حين تصير وعيا : اي : حين تتحول الى فعل . اي : حين يكتمل نزوع الشعب الى القوة والفرح .

□ ٤ □

الآن ، اكثر من اي وقت ، يكتمل في شعبنا هذا النزوع.

نحن في الفاجع ! اذن نحن في الالم ! اذن نحن في القلق الخالق ! اذن نحن في الولادة ! كل ولادة فرح . كل فرح قوة، كل قوة فعل جميل في الآتي .

الآن ، اكثر من اي وقت ، ينبغي امتلاك النزوع الى القوة والفرح .

ذلك أن المسألة هي أن نكون . الغي من المعادلة ما تبقى. فليس بوسع احد ، ليس بوسع طغيان ، أن يقول لشعب : انت لا تكون . الشعب يقول للطغيان : انت لن تكون . ويكون صادقا ، اما الطغيان فيفشل .

□ ٥ □

مباشرة ، تضعك المأساة في وجه القدر .

والا ، فانت مهرج .

يكثر المهرجون في زمن المأساة ، ويقل المأساويون .

يكثر الصادرون عن السواقي،ويقل العائدون منالينابيع.

هكذا تتناسل الاقلام المريضة .

اشفق على الورق متحولا الى ماسح دموع .

اشفق على الكتابة ، تعرج على ارصفة المصير العربي .

عودوا الى صدقي اسماعيل :

« تكون المأساة حين نعي ان السقوط هو سقوط الجميع. ففي المأساة لا وجود للضحية والمتفرجين ، بل الجميع يكونون ضحايا . ومن ثم يكون الحزن الفاجع ، ان هذا الحزن هو الاشارة البليغة الى ان المأساة يمكن ان تكون انبعاثا جديداً في حياة القيم . » .

★ ★ ★

صدقي مفكراً

مع تأملات في الفكر والأدب

أنطون مقدسي

كنت قد انهيت النص الذي سيلي بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة صدقي وفي ذهني ان الموضوع المطلوب مني معالجته هو (فكر صدقي اسماعيل) او (صدقي مفكرا) . ولشدّ ما فوجئت عندما وصلت اللاذقية فاذا به (فكر صدقي ونضاله) .

قلت بعد تفكير : ولم لا ؟ فالرجل وجد في قلب المعركة ، في ساحتها ولد وعاش ومات . وبالفعل فقد كان في حوالي الثامنة من عمره عندما بدات معركة اللواء ، وفي الرابعة عشرة عندما انتقلت المعركة ــ وانتقل معها هو ورفاقه ــ من انطاكية الى دمشق . وكان في الثالثة والعشرين عندما تأسس حزب البعث وفي الرابعة والعشرين عندما حلت نكبة فلسطين ... وفي السابعة والثلاثين عندما انفصمت عرى الوحدة بين سورية ومصر ... هذه الاحداث الخطيرة ــ وغيرها ، وكلها ماتزال ماثلة امامنا كلنا ــ شارك فيها بشكل أو بآخر ، لا بل عاشها ، وهي حاضرة في كتاباته بين الاسطر ، خلفها ، امامها ، فيها ، كما كانت حاضرة في سلوكه . فلم يكتب ــ الا اللهم باستثناء بعض قصائد كانت بمثابة تمرينات مدرسية ــ لم يكتب حرفا واحدا الا من اجل المعركة . ولم يتخذ اي قرار اساسي ــ وربما ثانوي ــ في حياته الا وتساءل عن تأثيره في المعركة .

وليس هذا بالامر المستغرب . فهو ينتمي الى جيل تميز بالصدق

والاخلاص ، بنكران الذات والزهد في الحياة الدنيا « متاع الغرور » . فمتعتهم الدراسة ، وشغلهم الشاغل النضال ، وما تبقى وقت مهدور . ولم تكن لهم من قضية سوى العروبة التي اتحدت بوجودهم . وآمنوا بها دستورا لحياتهم .

وتميز الجيل أيضا بالكثير من السذاجة .

وهذه السذاجة هي التي مكنته من ان يدخل المعركة من اجل ان تكون ثمة امة عربية واحدة لان الموجود وحدته . ونظن ــ نعتقد ــ كلنا باعتقاد جازم ان المطلب مناله قريب فاذا به يتباعد ويتباعد حتى ليكاد يغيب في الافق الابعد ، حلما جميلا يخلف وراءه مرارة الامل المخيب .

ويبدو لي أن صدقي ادرك في الستينات ، أو بعيدها بقليل ، هذا الواقع المؤلم ، فكان بمثابة نقطة تحول في حياته وسلوكه وكتابته . اقول:

انه علق النضال المباشر ليناضل بالقلم ؟ هذا خطأ . فالذي يغيب عن ساح المعركة يعجز عن الكتابة او يكتب على هامشها . وهذا ما يطرح علي سؤالا اساسيا لا اعتقد ان صدقي ، وان كان قد عاشه ، طرحه على ذاته : ما العلاقة بين النضال والفكر ؟ او : ما نضال الفكر بما هو كذلك ؟ من هذا السؤال تنبثق اسئلة كثيرة ساطرح بعضا منها ، منها على سبيل المثال : ما الفكر بذاته ؟ ما الفكر في الادب ؟ هل كان صدقي مفكرا بالمعنى المألوف للكلمة ؟ الادب يعالج مشكلات سياسية واجتماعية ، نفسية وثقافية ... وهي تبدو وكأنها فكره . وهذا ايضا خطأ لان الفكر شيء آخر ، الفكر غير الافكار .

ان نقطة البداية في المعركة الثقافية هي ان يكون المثقف ذاته اقصد ان يكون امينا للخط الذي اختاره (والانسان يختار خطه في الحياة كما أن هذا الخط هو الذي يختار بدوره صاحبه) . فمعركة الروائي ان يكون روائيا متميزا ، والشاعر ان يكون شاعرا اصيلا ، والفيلسوف ان يسير على الطريق التي قد تضعه يوما في صف الفلاسفة ... ويخطو الكاتب الخطوة الثانية في درب الامانة للذات عندما يطرح على ذاته السؤال التالي: ما الهدف من الكتابة . واذا كان الجيل الاول – جيل صدقي – قد عجز عن تحقيق الهدف من نضاله فلأنه لم يدرك هذه الحقيقة الاساسية وهي ان النضال من شأن الانسان الذي يقوم به . فالشعب الذي لم يدخل بعد القرن العشرين لا يستطيع أن يحقق اهدافا هي من صميم هذا القرن وقد تكون احيانا من مستلزمات القرن الواحد والعشرين . فالمهمة الاولى هي أن ننشىء الانسان العربي بشكل يؤهله ليعيش هذا القرن ويعيش فيه ، لا ان نقحمه فيه بالشعارات والكلمات المفخمة .

وتلك معركة ثقافية ، الفكر في صميمها .

لقد كانت لاجدادنا الاوائل حضارة وضعتهم في الصف الاول بين

الشعوب المتحضرة . ولكن ايمكن لحضارة البادية وانسانها ان ينقلا ، كما هما وبوضعا في قلب الحضارة المبرمجة ؟

يبدو لي ان صدقي ادرك في الستينات شيئاً من هذا . فاخذ القلم ــ وهو مايزال في ساح المعركة ــ ليسهم في انشاء الانسان العربي الجديد، وحده قادر على ان يحقق اهداف امته ، وليسهم في انشاء ثقافة عربية تضعنا يوما بمستوى القرن الواحد والعشرين .

فلا يعنيني ما اذا كان قد طرح الاسئلة كلها التي ساطرحها والتي اوحت لي بها قراءتي لمؤلفاته . انما يعنيني انه سار في الطريق التي قد تؤدي يوما الى الاجابة عنها . وذلكم كان اسهامه الذاتي في المعركة القومية . وهذا الاسهام هو موضوع دراستي التالية : احتفظ بها كما وضعتها .

الجيل ــ الاساس :

لو كان صدقي قد سئل في استفتاء صحفي ، ما اذا كان يعتبر ذاته اديبا ام مفكرا ، لكان ابتسم فيما أعتقد (وفي ابتسامته الكثير من الارباك والعذوبة ، التساؤل والسخرية) واجاب بعد التلكؤ والتردد ، بالاحرى ارتجل الجواب الذي توحي به اليه سليقته والملابسة ، واملاه بادب وجدية ، ونسي في الايام التالية السؤال والجواب .

الارجح ان الذي صاغ السؤال قصد به فلسفة صدقي أو على الاصح مجموعة الافكار التي عالج او التي الهمت تاليفه الادبي .والسؤال مشروع، فمقالات الرجل ودراساته وكتبه الفكرية تفيض حجما على كتاباته الادبية. ومن ثم فانه كان قد درس الفلسفة في كلية الآداب بجامعة دمشق (١٩٥٢) ، ودرسها ، حياته كلها ، في الثانويات ودور المعلمين والجامعة احيانا . ولكنه لم يكن مدرسا ناجحا في مقاييس الهيئة التفتيشية .

ففي اضبارته السرية بقلم وتوقيع المفتش المتخصص كلام كثير اختار منه بعضا مما انطبع في ذاكرتي : مدرس فوضوي ، لا يتقيد ببرنامج ، قلما يحضر درسه ، يعجز عن ضبط صفه .:. قلت لصدقي عندما اطلعني على هذه الخلاصة التفتيشية المكثفة : لك اسوة بمعلمنا ، فلا اعرف مفتشا ولا مدير مدرسة ولا اداريا كان راضيا عن الارسوزي . الحق معهم بمعنى ما . فقد كان يبدا دوما درسه بعبارة مأثورة عنه (كتابكم يقول) ثم يلخص الكتاب باقل من ربع ساعة وما تبقى من الوقت يكرسه للنقاش مع الطلاب في الثقافة والعلم ... والسياسة الراهنة . ومع ذلك لا نعرف انسانا في هذا البلد كان له من الاثر في تكوين المثقفين ـ والراي العام ـ ما كان لزكي الارسوزي .

اذكر ايضا ان صدقي اطلعني على الرسالة التي تقدم بها لنيل الاجازة في الآداب . فلم يعجبني الموضوع ولا المعالجة . واقول له : الرسالة الجامعية ياعزيزي هي مشكلة يزعم الطالب انه وجد لها حلا ، قضية يثبتها او يدحضها ، سؤال يجيب عنه ... وانت اقتصرت من الفلسفة العربية على خلاصات يضعها الطلاب استعدادا للفحص الشفوي . فيجيبني دون ما تردد : جمعت في هذا الدفتر كل ما رايت ان اثبته في ذهني من تراثنا الفلسفي وما تبقى لا يعنيني امره .

وتعلن الجامعة بعد عام عن حاجتها لمدرس تخصصه في علم النفس . فأعرض على صدقي فكرة التقدم للمسابقة لاعتقادي ان لهذا العلم مكانة خاصة في نفسه ، وهو من وجه آخر مستوف لكافة الشروط ... فلا ارى منه ايةاستجابة لحماستي ، لا اتبين من ملامحه رد الفعل الذي نتوقعه من مدرس شاب مجاز يعرض عليه مشروع العمر وهو الانتقال من الثانوي الى الجامعة ، ويقال له : الابواب مفتوحة امامك على مصاريعها : لم يرفض . ارجح ان الفكرة لاقت هوى في نفسه ، ولكنه لم يكن مستعدا لبذل اي جهد من اجل تحقيقها ، فترك الامر للصدفة .

التدريس وسيلة ، وكذلك الكتب والكتابة ، المهنة والوظيفة ... والحزب ... كلها طرق قيمتها ليست في ذاتها ، وجودها ليس بذاته ، بل في الغاية التي جعلت من اجلها .

كان يقرأ بنهم ، حياته كلها قرأ ، قرأ المقالات والدراسات والكتب التي يعتقد انها تعالج مشكلات راهنة او تسعفه ـ تسعفنا ـ على فهمها ، سيان في ذلك الادب والفلسفة ، التحليل النفسي والتحليل السياسي ، الخبر والتعليق عليه .

ويكتب كما يقرأ

في الفرح يكتب ويقرأ لقناعته بانه يقوم بمهمة ، يؤدي واجبا ، يقدم خدمة ، وابن الانسان جعل ليخدم .

كذا كان الجيل الذي انتمى اليه ، والاجيال السابقة واللاحقة مباشرة اعتقدوا ان الوقت حان لتحقيق حلم أجدادهم في الامة الواحدة ، خلفوها امانة في اعناقهم . وكان الارسوزي بينهم ديانا رهيبا يحاسبهم على الاعمال والنيات .

ماذا بقي اليوم من الامانة ؟ الكلمة ، صداها تردده صحاري البشر فتبتلعه رمالها .

يفكر المرء في الجانب من وجوده الذي ينذر بخطر ، يفكر في الجانب المريض من وجوده . وتفكيرنا نحن العرب ، المصيب منه والخاطىء ، المنطقي واللامنطقي ، المتميز والمبتذل ... فكرنا كله مركز حول محور واحد : العروبة التي صارت اشكالية منذ ان اعلنا ذاتنا عربا ، وسيبقى لزمن طويل وجودنا مرضنا .

والسؤال الذي يطرح بعد قرن ونيف من الاعلان ، وبعد نصف قرن ونيف من الكتابات المتراكمة هو : هل فكرنا العروبة حقا ام استخدمناها

ذريعة تحجب عنا وعن العالم ـ عن أنفسنا قبل العالم ـ صراعاتنا القبلية، أم جعلنا منها وسيلة لتحقيق انفعالاتنا واندفاعاتنا المكبوتة ..؟

السؤال الذي يطرح هو : هل كان كلامنا عن الامة فكرا أم سلسلة لاهثة من التأكيدات تتحول في ساعات الحماسة الى صراخ ؟ بهذا استعضنا عن الفلسفة بالايديولوجيا ، وعن هذه بالعقائدية ، استعضنا عن الفكر بالانفعال وعن الاقناع بالاكراه .

البارحة كانوا بيننا ، صدقي ، الارسوزي ، الحصري وغيرهم ممن نزعم انهم اساتذتنا ، جيلنا يعرفهم ، يعرف على الاقل احدهم . هؤلاء فكروا كل منهم على طريقته ـ حاولوا التفكير ، جهدوا كي يسيروا على درب الفكر ، شقوا ، حاولوا شق خط للفكر ، سيان عندي الآن اكان خط كل منهم بعيد المدى أم قريبه . ولكن من الذي يقرأ مؤلفاتهم من الاجيال التي تكونها اليوم ؟ قل : من الذي سيعرف اسم احدهم من الاجيال التي تلي؟

ان اكبر كارثة تصيب الفكر هي تحوله الى ايديولوجيا ، وهذه الى شعارات .

الفكر والوجود

لو كان على صدقي ان يختار نوع كتابته ، لرجح الادب ، وربما في الادب الرواية . الا ان الخيار ـ عندهم ـ لم يكن بين الاجناس الادبية ، ولا بين الكتابة التحليلية والكتابة الشعرية . كانوا يشعرون ان الوطن معلق بين الوجود واللاوجود ، ويعرفون انها كثيرة الامم التي اختارت اللاوجود، او ان لكل جماعة الوجود الذي تستحقه ، والفكر بعد ليس طريقا الى الوجود ، بل هو الطريق والوجود معا .

فالتخلف في العقل أولا ... يلي ما يلي من مآسي التخلف ، في العقل اولا واخيرا .

والغنى ليس في ما تملك ، فويل لك ان حولت تراثك الى ملك لانك عندئذ تخسره ، وتخسر ذاتك دفعة واحدة .

الغني هو الذي يوظف رصيده ، ثروة نقدية كان هذا الرصيد ام تراثا فكريا . والاغنى هو الذي يوظف رصيد الغير .

ذلكم هو الفكر في واحد من اوجهه المتعددة : عقل بمقياس المصير .

فثمن الفكر دوما مرتفع الا انه يصبح مفرطا في المنعطفات التاريخية: تضعك بين الحياة والموت ، تراكم في وجهك المشكلات وتتحداك .

... ورهانهم كان : ان ننشىء تراثا للقرن العشرين يضع يوما وجودنا بمستواه . فالثقافة ليست مضافة الى الانسان ، إضافة السلعة التي يقتنيها ، بل هي اياه . انها ثمرة الفكر والدليل اليه ، « الفكر والوجود واحد »(١) .

طموح يبدو لنا اليوم دونكيشوتيا وقبض الريح ، بعد سنوات من الصراع مع التراثات العالمية ونتاجها الذي لا ينضب معينه ! او لم يبداوا، لحد ما من الصفر ! الا ان الفكر – الاصيل – يبدأ دوما من الصفر ، يلغي ما قبله ، يتمثله ويباشر طريقا أخرى . وفي البدايات عفوية الشباب، سذاجة المبتدىء ، غروره وجرأته ، ثقة الانسان المفرطة بذاته ، ولعه بالمغامره وعجزه عن تقدير العواقب .

---

(١) العبارة لبرمنيدس . وقد علق عليها بعمق واسهاب مرتن هيدجر على الخصوص في القسم الثاني المكرس لها ، من كتابه (ماالذي ندعوه فكرا ؟) نشرته بالفرنسية المطبوعات الجامعية الفرنسية بباريس .

واليوم ، بعد أن بدأت جذور التراث العربي الجديد تترسخ ، بعد ان صار لنا ادب ما نذكره ، نفخر به ، نستخدمه رصيدا ونأمل ان يستعيد يوما رصيدنا السابق ، هل ذهبنا في مجال الفكر الى أبعد مما ذهبوا ؟ لا اعتقد .

فمازال أدبياتنا التحليلية تلخيصا أو تقليدا ـ قل : في اغلب الحالات مسخا ـ للنموذج الغربي ، تلعنه ـ صاحبه مستعمر ـ ويسحقنا لعجزنا عن تمثله . والادب ، لهذا ، ـ وباستثناء صفحات منثورة هنا وهناك ـ محدود الافق ، ضحل الخيال ، فقير الرؤية ، عدته صور يلهو بها لهو لاعب النرد بحجارته .

اما الانسان العملي فيزعم ان الواقع ملكوته ، وقائعه ، ابلغ من كل تفكير . وينسى أن معالجة الوقائع هي أيضا عمل فكري .

فالفكر فعل .

الادب والفن ، الفلسفة والعمل ابعاد هذا الفعل وتجلياته . فقيمة كل منها في فكرته التي هي مرماه ، وأيضا سبيل صاحبه الى ذاته . فالمستهلك لا يفكر لانه متلق لا فاعل . وإن الوقائع والصور والمفاهيم الا مادة هذا الفعل . فكل قصور في اللغة قصور في الوجود ، ... وهو قصورنا .

فلم يكن صدقي مخطئا عندما اعطى الثقافة المقام الاول بين فعالياته المتعددة ، وجعل الثقافة فكرا والادب فكرة . هل كان الرجل مؤهلا لسلوك هذه الطريق الاوعر بين الطرق ؟ الاهم في ظرف كظرفه أن تسلك الطريق ، أن تصمد على ارض المعركة ، واضعف الايمان أن تدل عليها . وصمودك هو الذي يدفع بعضهم الى سلوكها معك وبعدك .

كان العربي في نظر الجيل جاهزاً لتلقي حضارة القرن العشرين . فابن الشعب موضع ثقتهم . انه كالارض الطيبة في زمن الجفاف واليباس، قطرة ماء تنعشها ، تعيد اليها بعضاً من حياة . الوهن في القيادات الفكرية في كافة المجالات وعلى كافة الاصعدة الفنية منها والفلسفية والادبية ، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية ، فعفوية رجالاتها مع غرائزهم، وعقلهم مع مصالحهم ، يدعون التقدم وهم اسرى ماض ، ثقله ، ثقل التاريخ ، يشدهم باستمرار الى الوراء . لقد انهزموا في معركة الفكر ، ثقل ان يخوضوها انهزموا . اليوم كما بالامس القريب ، وجدوا مهزومين . أفلا يحق للمراقب الحيادي ان يسائل ، ما اذا كان العربي في المرحلة التاريخية الراهنة يفكر ام لا ؟ وباي معنى ؟ ولماذا ؟

فليس من المستغرب اذا ان يؤثر القارىء العربي الكتب المترجمة على المؤلفة ، والترجمات الفكرية على الادبية . وكانو في سالف الزمان يقصدون ديارنا ، يتعلمون لغتنا ويدرسون مؤلفاتنا ومصنفاتنا ... ليتعلموا فن التفكير الذي هو فن الوجود بشراً سوياً .

ويبدو لي ان جيل صدقي ادرك غريزياً ، ولحد ما ، هذه الحقيقة الاهم وهي ان فكرنا ، اية كانت طريقة تعبيره عن ذاته ، شعرية ام نثرية، ادبية ام تحليلية ، واياً كان نوعه ، ثورياً ام اصلاحياً ، سياسياً ام تنظيمياً ... ، بحث عن هوية في طريقها الى ذاتها ، بحث بالاحرى عن هوية اضعناها ، ونحن الآن نستعيدها في عصر يجهز على الضعيف ، ولا يرحم المتخلف عن الركب . والذات ليست التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي .... وحسب ، بل اغناؤها ، توسيع آفاقها، تعميقها ، بمعنى ما اعادة تكوينها . وتلك مهمة العمل الثقافي الدائب ، لا يعطي اكله الا اذا اعطي المقام الاول بين الفعاليات الاجتماعية واستمر على اجيال . وما فائدة الصروح نشيدها والآلات نراكمها ... اذا كان الانسان الذي جعلت من اجله غائباً او منقوص الوجود ؟

ولهذا كتب صدقي ، اكثر احيانا من الكتابة حتى الافراط ، كتب الشعر والنثر ، كتب المقالة والدراسة والكتاب ، كتب المسرحية والرواية والقصة القصيرة والمذكرات ، النقد الادبي والاجتماعي ، الفن والتربية ، الفلسفة والعلم ، ارتجل ، تسرع ، نشر نصوصا كان يعرف انها تفتقر الى الحد الادنى من الانضاج . كتب لشعوره ان القارىء العربي يريد ان يقرأ العصر ، ان يكون ابن زمانه ، يلح في الطلب . والذي يتضور جوعا لا يسأل عن لون الطعام الذي يشتهيه . الا ان هذا البوهيمي كان يعرف قيمة الكلمة . فالنص الذي يراه اساسيا يستبقيه بين يديه أياما وليالي . وربما أن نصوصه التي لم تنشر مع انها من عيون كتاباته(١) كانت موضوع اعادة نظر منذ سنوات .. كما كان يعرف ايضا بسليقته ان مشكلات مرحلة تاريخية غالبا ما ترتد الى واحدة تبعث لاشعوريا القلق في نفوس الجماعة ، وهي التي تستقطب تفكير المفكر .

واليوم ، مشكلة العربي وجوده . فعندما يؤكد عروبته يخفي بلهجته القاطعة شكه في ذاته وقد يشعر ان تأكيده الجازم يتبخر على شفتيه . ولا عجب فكلمة (عربي) تتأرجح دلالتها بين حدين اقصيين كل منهما ينفي الآخر . انها تشير الى وجود عمره خمسة عشر قرنا ونيف ، فهو متعدد الاوجه والمستويات والمسافات مشبع بالمعاني الموجبة والسالبة تتناوب عليه فترات النور الاكثر اشراقا مع فترات السواد الاكثر ظلاما . ولكن الا يحق لنا أن نتساءل ما اذا كانت صراعاتنا القبلية والانانية قد ابقت للكلمة محتوى ما ، ما اذا كانت العروبة قد اصبحت اسما بلا مسمى !؟

---

(١) اهم النصوص المخطوطة : ١ ـ تجربة المتنبي ـ فان غوخ ـ حب المرقش الاكبر ـ الفصل الثالث من مسرحية عمار يبحث عن ابيه ـ القسم الاول من رواية المحادلة .

فلم يكن صدقي مخطئا عندما ركز كتاباته واسئلته حول محور واحد قاربه في الرواية كما في البحث ، في المسرح كما في المحاولة .

كانت لنا هوية فعلام طمست معالمها ؟(١)

كانت لنا حرية فعلام تلاشت وكانها لم تكن ؟(٢)

كانت لنا قيم فعلام انهارت دفعة واحدة وخلقت بعدها الفراغ(٣) .

نادينا بالثورة فأين نحن منها الآن ؟(٤)

أبقي في قلبنا مكان للحب ام حولناه كله الى غرائز جسدية(٥) ؟

الى اين تمضي الاجيال المتعاقبة : الى الوجود ام الى اللاشيء ؟(٦)
ايمكن ان يؤدي الفقر الى الثورة ؟(٧)

اما يزال العربي يؤمن باللحظة والكلمة في عصر الاتمتة والحاسبات ؟

تلك وغيرها اسئلة الفكر العربي اليوم ومصدر قلقه ، لامسها صدقي مرة قاربها واخرى تجاوزها وكانه نسيها . كانت على اية حال للجيل اسئلة عجزوا عن صياغتها ولكنها عاشت في فكرهم وشكلت المحرك الاساسي لسلوكهم .

فمن الذي يسأل اليوم ؟ وكيف ؟ وعما أو عمن يسائل ؟

(١) يمكن قراءة نصوص صدقي ذات الموضوع العربي على انها بحث عن الهوية العربية واكثرها من هذا القبيل غالبية نصوص المجلد الاول .

(٢) (تجربة المتنبي) في المجلد الاول من المؤلفات الكاملة التي استندت اليها في هذه الدراسة.

(٣) (مقصورة ابن دريد) والقسم الاخير من (العرب وتجربة المأساة) المجلد الاول .

(٤) مسرحية (عمار يبحث عن ابيه) المجلد الخامس .

(٥) (الحادثة) و (حب المرقش الاكبر) المجلد الخامس .

(٦) رواية (العصاة) المجلد الثالث .

(٧) قصة (الله والفقر) في المجموعة التي تحمل هذا الاسم ، المجلد الثالث .

الفكر في الادب

ان اصعب ما في الحديث عن الفكر هو كلمة « فكر » : تحديدها ، معناها ، مقابلها في الواقع او ما تحيل اليه .

يعتقد الادباء العرب ـ جلهم ان لم يكن كلهم ـ ان الاديب يبدع عالما مبتكرا فهو في مرتبة اعلى من المفكر الذي يقتصر على دراسة او تحليل واقع ما . وربما ان هذا الاعتقاد هو احد الاسباب التي جعلت النقد الادبي يتخلف عندنا عن بقية الاجناس الادبية ، قال لي احد الادباء الشباب عندما اطريت دراسته وشجعته على الاستزادة منها : افضل كتابة اعمال ابداعية على دراسة ابداعات الاخرين ، حتى لو كان هؤلاء من مقياس جوته او بيكيت !؟ .) وليس هذا الشاب الاول ولا الاخير بين الذين ابدوا علنا وبكثير من الاعتداد احكاما طائشة من هذا النوع . ويعتقد الادباء ضمنا أنهم انصفوا الباحث او انقذوه عندما اطلقوا عليه اسم (كاتب) وقبلوه في (اتحاد الادباء) الذي صار يطلق عليه احيانا اسم (اتحاد الكتاب) . اذ انه ـ اي الباحث ـ لا يرقى الى مرتبة اديب (اي مبدع) حتى ولو كان فيلسوفا . قلت مرة لاحدهم ، وقد أمعن في التبجح : او تعتقد أن ارسطو ليس مبدعا وان شكسبير ليس مفكرا ؟! . . فسكت .

الجواب جدالي ، احراجي اذا شئت . الا انه كاشف عن موقف نتائجه مفجعة . وبالفعل فان الادب العربي المعاصر (او الحديث بشكل عام) محدود الافق ، قصير المدى ، ضيق الفسحة ، هزيل الرؤية . اذا كان سردا فهو يستثير الفضول او الانفعال لا الخيال المبدع . واذا كان شعرا حديثا فعدته جملة نعوت ضبابية تجعل قراءته منهكة ، او جملة كليشيهات اذا كان عموديا . قد تقع هنا وهناك في الاثنين على ومضات ، ولكنها أقرب الى السراب منها الى النور . والكل يسقط في الفراغ

فتعب القراءة الاولى ، تدفعه الذاكرة عنها كما يدفع الجسم السليم الطعام غير المجدي . انه فقير بسبب من فقر صاحبه الثقافي اقصد الفكري . هذا الضمور الثقافي يكاد يكون عاما لدى الطبقة المثقفة في العالم العربي . فانت لا تجده في النص الادبي والفلسفي وحسب ، بل ايضا في النص الايديولوجي والسياسي ، الحقوقي والاقتصادي ، الخ . وفي الاجراءات المستندة الى هذه النصوص .

وباختصار فان الاديب العربي لا يفكر ، والمفكر العربي لا يكتب .

ان التباعد بين الشعر والفكر قديم في تراثنا العربي ، والحضاري قدم هذا التراث . ولهذا بقي شعرنا برمته جاهليا حتى اواسط القرن العشرين ، كما ان الفلسفة والكتابات الفكرية الاخرى كانت دوما خارج دائرة البيان . وهذا نقص كبير سترته في عصور الازدهار قدرة العربي الخلاقة . واذا استمر فسيبقى ادبنا ـ الا اللهم لدى المواهب الفذة ـ رخوا كالجسد الذي يتفتت هيكله العظمي .

لا يخلو في الحقيقة راي ادبائنا من بعض الصحة .. فمن حيث المبدأ ، يستخدم الاديب الصورة ، والمفكر المفهوم . الاول يحول الواقع الى مخيلة ، وهذه الى حكاية ، خبر ، اسطورة ... او جملة لمسات (الشعر) تستثير حساسيتك . تداعبها ، تتلاعب بها ، تعيد تكوينها . والكل ينشيء واقعا غير واقعك الاليف واياه ، وبهذا يكشف في عالمك عن دلالات وابعاد كانت حاضرة امامك تناديك وانت ساه عنها . وفي الوقت ذاته يحول هذا العالم الى تاريخ ، يطوره ويطورك : انه واقعك لا الاشياء في شيئيتها التي تظن انها هذا الواقع . ويحق للمرء هنا أن يتساءل ما اذا كان الادب العربي التقليدي في وضعه الراهن هو الذي يلعب هذا الدور الخطير وكيف ؟ الحقيقة ان الادب العامي ، كلاما وشعرا ، اهازيج واقوالا مأثورة ... هو الذي يبلور شخصيتنا ـ الاساس . يلي الادب «الرسمي»

الذي يشدها الى الوراء ، فالاداب الاجنبية التي تتولى عملية تحديثنا وتغريبنا ... وهذا الجانب حديث يطول أمره ...

وفي الادب ، العقل من أبعاد الحساسية والخيال ، اما في البحث فالحساسية والخيال مرتبطان بالعقل . البحث يحول الواقع -كل واقع- انسانا كان ام شيئا ، وصفا ام خيالا واهما ، كلاما أم كتابة ، لوحة أم معزوفة ، قرارا سياسيا ام معركة حربية ، وباختصار كل موجود يصل الى مستوى التعبير - يحوله الى نص ، والنص مفاصله هي التي تجعل منه كيانا موحدا متكامل العناصر والابعاد . والمفاهيم التي هي سبيل الفكر الى ذاته والى عالمه ، ان هي الا التعبير الفعلي عن هذه المفاصل ، او هي قراءة الفكر للواقع - النص .

والصورة قراءة اخرى . وكذلك كلامنا ومواقفنا وسلوكاتنا ، كلها قراءات اي تفسير للواقع يبدله ويبدلنا معه . والبشر يختلفون بعضهم عن البعض الاخر ويتفاوتون في قراءاتهم ، كل قراءة تقيس صاحبها . فهيجل مثلا قرا الفلسفة السابقة عليه برمتها اذ رد مقولاتها الى مقولاته، وبذلك انهاها على حد تعبيره ، اي أوصلها الى غاية منتهاها . ولكنه انشأ بالفعل ذاته فسحة فكرية مايزال الفكر الانساني منذ ماركس الى ايامنا يتمرد عليها عاجزا عن الافلات منها .

والعمل الادبي هو ايضا قراءة للواقع تحوله الى نص يشق هو ايضا فسحة يعيش فيها قراؤه . فاذ يقرؤه الناقد يتميز بالدرجة الاولى مفاصله ومعناه . ومن ثم نمط استجابته للجماعة التي أوحت به واستجابة هذه الجماعة له . والمدارس الادبية قراءات هي مبدئيا الاوسع بين القراءات الادبية . فللقرن التاسع عشر مثلا قراءتان كبيرتان للواقع متعارضتان ومتكاملتان هما - الرومانتيكية والواقعية - حددتا حساسية وافق خيال كتابه وقرائهم وما تزالان من مقومات حساسيتنا ... ذلكم

هو الفكر في الادب او الفكر الادبي : قراءة لمعنى من معاني الوجود الكبرى يحوله الخيال المبدع الى رؤية وهذه يجسدها البيان في نص .

ورؤية الاديب عالمه ، فسحته ، فيها يطرح قضايا واشكالات عصره كما التقطتها حساسيته ومعها ايقاع عصره . فبلزاك مثلا طلب من (الكوميديا البشرية)(١) أن تكون بمقياس الشرخ الذي احدثته البورجوازية في الانسان ، وجودا وتاريخا . وكانت اذ ذاك في أوج سيطرتها . ومازال الصورة — قل بالاحرى الملحمة الكاريكاتورية — التي رسم تستدعينا نتعرف فيها الى ذاتنا . والبورجوازية مازال — وحتى بعد الثورة العلمية — التقنية التي احدثتها وكانت بمثابة تخط لها — مازال حتى اليوم هي المحرك الاول والاهم لتاريخنا .

ودوستويفسكي رأى الشرخ ذاته ، ولكن من منطلق اخر — روسيا المقدسة — مكنه ، مكن عبقريته ، من تجاوز الطبقات ومواجهة الطبيعة الانسانية بذاتها أو في المطلق ، فاذا بها مسرح لصراع ملحمي لا ينتهي ، ينبثق من هاوية الشر التي لا قرار لها ، ويخترق البراءة والايمان ، يتحداهما . فالانسان تطلع وتخط لما يعجز عن تخطيه بقواه الذاتية(١) .

بهذا تتسع فسحة دستويفسكي الادبية للفلسفة ، كما تتسع فسحة أفلاطون — عدو الشعر — للادب والشعر .

والفسحتان الادبية والفلسفية (الفكرية بالمعنى الضيق للكلمة) تختلفان كل منها عن الاخرى في الوسائل والمنهج والمرمى : هذه تريدذاتها

---

(١) اطلق بلزاك نفسه على رواياته اسم (الكوميديا البشرية) .

(١) التعارض بين الشر والايمان — واصله عند القديس بولس — حاضر في أغلب مؤلفات دستويفسكي . الا انه يبلغ ذروته من حيث الكشف عن الخطيئة بذاتها في رواية (الشياطين) أو (الممسوسون) كما ترجمت ايضا . فستفروغين ، أحد أبطالها هو تجسيد الشر أو ابليس اذا شئت .

بمقياس الوجود والتاريخ (الزمان كما يقول هيدجر) ، الحكمة والعلم ، الطبيعة وما بعد الطبيعة . اما تلك ــ الادبية ــ فهي حيث يتجلى ، مبدئيا ، وجه الوجود الاكثر انسانية (ولا ــ انسانية) : ايقاعه ، لونه ، طعمه ومذاقه ان صح التعبير . . . بؤسه يحاذي احيانا العدم وعظمته . انه يشترك في فعل الخلق . وانت تقرا هذا الوجه وكانك تقرا ذاتك ، تعيشه ومنه تطل على ما فوق الانسان وما دونه . ولهذا يبدو التاليف الادبي واقعيا ، مشخصا ، والفلسفي مجردا عصيا على الفهم . وهذا وهم : فكل تاليف تجريد وتجسيد وان اختلفت الوسائل والنسب بين الاثنين . وقد يكون التاليف الادبي المتميز حقا ــ وهو قليل في تاريخ الآداب الانسانية ــ اعسر استيعابا من التاليف الفلسفي المتميز وهو ايضا نادر . والفلسفة بعد تستخدم المجاز الذي يعتقد الادب انه خاصته ، استخداما فلسفيا كما يقول بول ريكور (١) ، تجعل منه سبيلا الى مفهوم يتكون ، او تجسيد بواسطته مفهوما ممعنا في التجريد كالعدم مثلا . كما ان افلاطون استخدم ــ وبعده نيتشه ــ الاسطورة ليعبر عما يتجاوز كل تعبير . (٢) وبالمقابل فان الادب يستخدم المفهوم استخداما ادبيا ، يحوله الى صورة او يجعل منه بعدا من ابعاد مجاز .

وقد يجسد مؤلف فلسفي اساسي (مثلا فينومينولوجيا الروح لهيجيل بالنسبة لعصره ولعصرنا لحد ما) فسحة مرحلة تاريخية : آفاقها ، مراميها ، سبلها وحساسيتها ، كما قد ينهض بهذه المهمة شعر شاعر كبير (المتنبي في القرن الرابع مثلا) او مثلا ايضا ملحمة روائية (غرغنطويا ــ بنتجرويل لرابليه بالنسبة لعصر النهضة الغربية) .

(١) بول ريكور ، المجاز الحي ، الدراسة الثامنة والاخيرة بعنوان المجاز في الفلسفة نشر سوي باريس .

(٢) راجع بشكل خاص حوار القدرس (غير مترجم الى العربية كما اعلم) حيث يشرح افلاطون نظريته في الاسطورة ، ويطبقها في اسطورة الصعود الى عالم المعاني او العالم المعقول.

ويحق للمرء ان يتساءل ــ والاسئلة في هذا المجال لاتنتهي ــ عن أيهما ادق تعبيرا عن العقل العربي في القرن الخامس هجري وبعده مباشرة : لزوميات ابي العلاء أم ما بعد الطبيعة لابن رشد ؟ ! ولا اتردد شخصيا في الجواب : انه شعر ابي العلاء .

فالادب والفلسفة يلتقيان على صعيد الفكر من حيث هو سبيل كل منهما الى ذاته ، والى عالمه ، واقصد هنا بالفكر ، الوجود في مفاصله الكبرى ، في معناه ، او من حيث هو القول الدال ، لاندري ايكشف هذا القول في كل موجود يتناوله عن مفاصله ومعناه أم ينشئهما . والاثنان بالنتيجة واحد .

وهذا ماجعل هيدجر يرى في هولدرلين ونوفاليس وجورج تركل اندادا على صعيد فكر الوجود لمن يرى انهم فلاسفة الوجود اي هرقليطس وبرمنيدس وبقية المفكرين السابقين على سقراط(١) .

والقول الاصيل حقا هو قول الوجود ، تتساءل وانت تقرؤه ، ماذا كان المفكر ـ شاعرا ام فيلسوفا سيان ــ هو الذي يقوله ام ان الوجود يعبر عن ذاته بلسان المفكر . (والاثنان ايضا واحد بالنتيجة) .

والقول هذا لايعكس الواقع ، لايسجله ، لايصفه ، لايصوره ، لاينقله ...، بل يسائله ، يستنطقه ، يحاوره ... يجبره على ان ينطق بحيث يصبح بيانا . والوجود بعد ليس الاشياء في شيئيتها ، حيادها ، غربتك عنها تبعث في نفسك الغثيان عندما تراها كذلك ، اي عندما تعريها من بعدها الانساني الذي هو قولها ؛ ان تصور سارتر(٢) هذا (اذا كان

---

(١) هذا الموضوع يتامل فيه هيدجر في العديد من دراساته ، راجع بشكل خاص كتاب (مقاربات من هولدرلين) الترجمة الفرنسية نشر غاليمار .

(٢) رواية (الغثيان) حيث يكتشف روكنتين الوجود في جذع شجرة ، تبعث في شعوره الغثيان .

قد عاشه حقا كما يزعم بعضهم) ذاتي يخص صاحبه واسلوبه الروائي . فالانسان وقوله بعد من ابعاد الاشياء ذاتها كما ان الاشياء بالمقابل بعد من ابعاد الانسان . وإن الفصل بينهما الا تحليل منهجي يمكننا من فهم تفاعل ابعاد الوجود بعضها مع البعض الآخر .

وبتعبير آخر فان فسحة البيان ليست مضافة الى الموجودات ، بل هي منها ولها ، ينشئها الانسان وتنشئه. فالقائل في حواره مع الموجودات، اناسا واشياء متلق وفاعل . والفكر الحق حيث تبلغ قدرة القول على مساءلة الموجودات اعلى مستوياتها .

واذا كان لابد من الاحتفاظ بثنائية المفكر والاديب . فكل منهما يقول الوجود ، يقوله موجودا ما (الطبقة او هذا البورجوازي ، البخل ، او هذا البخيل ، ... الخ) ليبدعه عالما يقيس موهبته وعبقرية الجماعة التي اوحت به وجعل من اجلها ، يقوله في واحد من المعاني الكبرى الناظمة لحركة الوجود وهي مفاصلة ، كما رأى افلاطون في محاورات سن النضج (٢) . فديكارت سمى العقل ، وكنت نقله الى فسحة الوعي حيث فككه ليمكننا من لمس آلياته لمس اليد ان صح التعبير . ودستويفسكي سمى ما لا اسم له ، اقصد البراءة تجعل من الرجل ابله في نظر الناس الخ .

وقول الوجود ذكر (افلاطون)
والوجود في فسحة البيان ذكره
فكل ابداع جدير بهذا الاسم يتجاوز الذاكرة ، ليذكر

(٢) ان كلمة (ايدوس) الافلاطونية لا تؤديها بدقة اية لغة من لغات العالم . وان كان لابد — ومن الضروري — نقلها الى العربية ، فاقرب كلمات اليها هي : معنى ، صوره ، قوام،... لا مثال ومثل البعيدة عنها كل البعد .

صدقي يكتشف طريقه الى الفكر

قد يظن القارىء للوهلة الاولى اني استرسلت مع تأملاتي في الفكر والادب فنسيت صديقي والسؤال عن فكره . الا اني لم اخف ارتباكي أمام سؤال مسبق ـ ماالفكر ؟ ـ لابد من الاجابة عنه ، او اتخاذ موقف ما منه ، قبل الشروع في الحديث عن فكر مفكر ما . هذا السؤال نبهني الى اهميته يوما مرتن هيدجر ؛ وكان يتوقع من تأملاته في كبارالمفكرين ـ وقد خصص لذلك كتابين (١) وعددا من الدراسات ـ ان تمكنه من تخطي الفلسفة ـ ومعها الفن والعلم والادب الى مستوى من « الفكر » يضعه في منزلة الحكم من هذه العلوم ، يقيم الحد بينهما ؛ وربما تمكنه ايضا من أن يستعيد فلسفة الوجود التي حاد عنها الغرب ففقد بفقدانها خصوصيته وبمعنى ما روحه . ويموت الرجل وهو في الطريق الى الفكر . . . والى الوجود ، يبشر ببزوغه يوما ؛ فيضاف اسمه الى قائمة الفلاسفة ويضاف موضوع الفكر الى مسائل الفلسفة الكبرى . . وبالفعل فها هي الدراسات اليوم تتكاثر عن الفكر وعن هيدجر وتجربته مع الفكر(٢)، وكلها تضعك في الطريق الى الفكر والى بقية اشكالات الوجود الانساني وقد القى عليها هيدجر ضوءا جديدا فجددها . بهذا تنمو الثقافة لا بالقضايا التي تحول من اشكالات ـ الى يقينيات تقرر ويطلب منك ان تنصاع لها .

فالفكر في الطريق الى الفكر
والوجود ايضا طريق

---

(١) (ما الذي نسميه فكر ؟) و (مقاربات من هولدرلين) وكلاهما بالفرنسية ـ ترجمة ـ من منشورات غاليمار بباريس .

(٢) من ارفعها مستوى على ماأعلم كتاب هنري بيرو (هيدجر وتجربة الفكر) في ٦٢٨ صفحة كبيرة نشر غاليمار بباريس عام ١٩٧٨ .

وكلاهما فعل ، والفعل يتجاوز لتوه الحدود التي نستخدمها لتعريته، اي لوضعه ضمنها .

والمسائل الاساسية لا تعرف وتعرّف ، كما تعرف وتعرّف الاشياءفي العلوم المدعوة دقيقة . اذ ان الاشياء معطيات (مااعطي لك فهو ناجز). اما مسائل الوجود وفعله فمستقبلها . فكل جواب قاطع مانع عن مسألة عن مسائل الوجود الانساني ، يدل اما على جهل صاحبه ، او على ان المسائل المدروسة انتقلت نهائيا من الحاضر الى الماضي ، او انتقلت من دائرة الفعل الى دائرة الانفعال .

قلت : الفكر في اساس كل عمل ادبي .

واضيف معمما : انه في اساس كل فعل انساني جدير لحد ما بهذا الاسم . ففي نقطة انطلاق كل تاليف شعري او ادبي او فني ... في نقطة انطلاق كل عمل سياسي او مشروع اقتصادي ... في بداية كل حياة يحياها الانسان واعيا لما يريد ، مريدا لما يعي ، فكرة ، مداهاوعمقهامقياس موهبة صاحبها . وهي تتحول عند لقائها بالواقع المعاش الى سؤال ، كل مرة يعتقد صاحبه انه اجاب عنه يرتد خائبا وهو يضع اللمسات الاخيرة لما انجز . فالانجاز اقل من التصور ، والتصور اقل من الفكرة . وتتوالى المؤلفات ، تتوالى المشروعات ، كل واحد منها يكمل سابقيه ، والفكرة تفلت من يد الرجل ، تتباعد ، تسبقه ، هي دوما امامه . ويمضي العمر والانسان عاجز عن الاحاطة بفكرته . ان فيها فائضا عن كل مشروعاته ، ماحققق منها وما لم يحقق : هو فائض الانسان عن اعماله .

والفكر بالقياس الى الفكرة ، كهذه بالقياس الى الانجاز . كما ان الموجودات اناسا واشياء ، تختلف عن **الوجود** ، اختلاف المتناهي عن اللا متناهي .

هذا الشعور العام بالتقصير الذي يلازم كل انسان يريد لوجوده أن يكون مثمراً لازم صدقي حياته كلها . فما أن ينشر عملا الا ويفكر باعادة النظر فيه، وهو ،في الوقت ذاته يضع الخطوط الكبرى لعمل آخر . ورحل وهو يعتقد انه مايزال في بداية البدايات ، لابل انه لم يبدأ بعد .

ويا ليت ان لنا كلنا في هـذا البلد الكريم مثل هذا الشعور ، اذا لكنا عندها بدانا مرحلة الولوج الى عالم الفكر .

وقد يعترض معترض قائلا: اني مهدت لدراسة فكر صدقي باستعراض اسماء هو – وكلنا – بينها نكرة بين الاعلام . وهذا خطأ . فصدقي فكر ، حياته كلها فكر ، ويكفيه انه سار على درب الفكر في بلد اضاع يوما درب الفكر ، بالاحرى عطلها ليسير على درب الايديولوجيات يسميها بحـق عقائديات ، والعقائد لامجال فيها للسؤال ؛ قل : لامجال فيها للتنفس ؛ انها قائمة بذاتها .

والفكر بعد لايرتجل . انه حصيلة عملية انضاج ، الزمن يلعب فيها دورا اساسيا . وننسى اننا في بلد ، سن الفكر فيها تبدأ متأخرة . وبالفعل فكم وكم من المعارك على المثقف الجاد ان يخوضها كي يتخطى القوى التي تشده الى الوراء وتلزمه بمواقع فكرية واجتماعية لاتتوافق مع مستلزمات حضارة البرمجة ؛ منها : ثقل التاريخ ، سطوة العرف ، سيطرة النمطي في السلوك والقول ... وايضا بالدرجة الاولى لغته التي تؤرجحه بين عالمين ، كليهما بمثابة حاجز يحجب عنه حقيقة فكر القرن العشرين : من جهة العامية التي رضعها مع الحليب والمتدنية مستوى ، ومن جهة ثانية الفصحى المفتعلة ، لايسيطر عليها – هذا اذا سيطر – فتقول او تفكر – ضمن حدود محدودة – عالم الآلة المسفسطة ، الا ويكون قد قارب الاربعين وربما تجاوزها . وصدقي غادرنا وهو بعد في الثامنة والاربعين . وكان بين قلة قليلة من ابناء جيله لم تنزلق مع الشعارات بل

وضعها في المكان الذي يجب أن تكون فيه . فلم يقرر ، لم يجزم ولم أسمعه يوما يرسل الإحكام القاطعة ويسترسل معها . كان يميز بوضوح بين مستلزمات الحياة الحزبية ومستلزمات الحياة الفكرية : الحزب بحاجة الى المفكر ، والعكس ليس صحيحا . فكمفكر كان يشك ، يبحث ، يسائل . . . يؤثر ان يسمع على أن يتكلم .

لم يكن صدقي فيلسوفا ، ولا عالما نفسيا او اجتماعيا ، كان مفكرا فنانا . وفكره هو الذي جعل منه اديبا . صحيح ان نصوصه الادبية ــ وقد كتب جلها في السنوات العشر الاخيرة من حياته ــ انضج تصورا وبيانا من نصوصه التحليلية ، وايضا انضج فكرا !.. الا انها كلها ، جملة وتفصيلا ، جعلت لمعالجة سؤال واحد ، للكشف عن ابعاده اذا أمكن ، وهو السؤال الذي طرحه جيله : من نحن ؟ وهو مايزال مطروحا وعيناه ام نسيناه .

سؤال خطير : خطورته في أنه يطرح مسألة الهوية الاجتماعية والانتماء ، و« خطره » في أننا نتنكر عمليا لما نؤمن به نظريا .

والامم بعد تسائل في نهضاتها وفي منعطفاتها التاريخية عن تقصيرها في مجال محدد او اكثر من مجالات الفعالية الانسانية كالسياسة مثلا (بناء الدولة) أو الاقتصاد (التخلف الصناعي) ، التربية أو العلوم . . . اما نحن فنسائل عن وجودنا عربا .

فريمبو الذي اعجب صدقي بعبقريته أو بثورته ــ البوهيمية ــ لم يسائل ، لم يخطر بباله ــ لاهو ولا غيره من الشعراء (والمفكرين) ــ أن يسائلوا عن الوجود الغرنسي ــ فهذا السؤال حسمته جان درك (١٤١٢ ــ ١٤٣١) مرة ولكل مرة عندما ضحت بنفسها لتنقذ وطنها من براثن بريطانيا ــ بل ساءل عن الشعر الذي سيعيد لبلاده قدرتها على الابداع .

اما نحن فكلما امعن الاجنبي في تمزيقنا سلمنا بكيان سياسي جديد نضيفه الى الكيانات السابقة المصطنعة كلها . وننسى ان التجزئة انفصام في الشخصية الاجتماعية يرتكس على الفكر الشخصي والجماعي ، يبعث فيه القلق . والقلق هو مرض الفكر يشله .

ويبدو لي ان كتاب (العرب وتجربة المأساة) الذي وضعه صدقي عام ١٩٦٣ كان بمثابة وعيه الاول – والمتعثر – لهذه المشكلة المستعصية . فهو يقول في الاسطر الاولى ماخلاصته : لو قيض لمفكر تقليدي ان يفكر هذا القرن افلا يتساءل ماذا كان ثمة خطيئة قد ارتكبت في الماضي ادت الى انهيار الدولة وتجزئة الوطن (١ – ١٩٣)(١) .

والتردي هذا قديم ، يرده صدقي في الكتاب ذاته الى القرن الرابع للهجرة وفي تعليقه على مقصورة ابن دريد (١ – ٣٤٩ ومايلي) الى ماقبل ذلك بحوالي نصف قرن . ويبدو ان استمرار الكوارث القومية هو الذي اوحى لصدقي بفكرة المأساة ، وبالبحث عن ابعادها (الشر ، الخطيئة ، العدم ، الفوضى ، الخ) وعن موقف الانسان منها (الحنق فثمة الاستسلام او الرفض والتمرد) والانفعالات التي تبعثها في نفسه (الالم ، اللوعة ، الاسى ، الحزن) وتطورها التاريخي (المسيحية ، الجاهلية ، الاسلام ، الانحطاط) وهذا هو الهيكل العام لكتاب العرب وتجربة المأساة .

ولا يعطي صدقي اي مدلول ديني او اخلاقي لمفهوم الخطيئة . وان كان يستخدم احيانا مفهوم الخطيئة الاولى ، اي الموروثة عن جدنا الاول كما في الموروث الديني . وربما ان المعنى الذي قصده هو حياد الجماعة

(١) الارقام بدون اية اشارة اخرى تحيل الى مؤلفات صدقي اسماعيل الكاملة في ستة مجلدات نشرت في دمشق بين عام ١٩٧٧ وعام ١٩٨٣ . فالرقم الاول للمجلد الذي نشر فيه النص المستشهد به والثاني لصفحة النص .

عن الخط الصحيح الذي كان عليها ان تواصله ، وقد تم في غفلة من الزمن فجر عليها الويلات سنوات وقرونا . والمعنى هذا مقتبس عن الارسوزي. ولهذا يقترن مفهوم الخطيئة عنده بمفهوم القدر ، وهذا الاخير يتواتر عندما يتكلم عن العرب . فالعربي في جاهليته كما في اسلامه ، في حاضره كما في ماضيه ، يؤمن بايمان يكاد يكون مترسخا في عضويته بوجود قوة مغمضة عاتية متعالية على البشر تتلاعب بمصائرهم . فعجز الانسان عن الصمود في وجه هذه القوة يخلق عنده الشعور بالفاجع وبالتشاؤم من المستقبل . فثمة الانكفاء على الماضي عند العربي يمجده ، تقدميا كان ام سلفيا ، شابا ام كهلا ، من ايامنا ام من سالف الزمان ... ويرفعه احيانا الى مستوى النموذج الذي لا سبيل اليوم الى تحقيقه .

لم كان وضع العربي ماساويا مفجعا الى هذه الدرجة ، طوال عشرة قرون واكثر ؟

صدقي لا يجيب عن السؤال . يغفل السبب ويقتصر على الواقعة . السؤال فلسفي ، وهو ليس فيلسوفا . هو اديب والظواهر ملكوت الاديب ، اما الماهيات فللفينو مينولوجيين ولمن يسير على دربهم .

الا ان الاديب ، وهو يصف الظواهر وكانه يلهو بها ، ينتقل منها الى ماتتجاوزها ، يتجاوز الماهيات ويمنحها كلها الوجود والحركة ، اقصد المعنى حيث يلقى الفيلسوف . وذلكم هو الفكر اديبا كان ام فلسفيا ام سياسيا ام غير ذلك . فالواقع ليس وقائعيته وحسب ، ليس ماتشاهده تقرره وتعيشه الحواس وحسب . ولو كان كذلك لتساوى الانسان والحيوان ، العبقري والانسان العادي ، المبدع والمقلد ...

الوجود معناه ،

علائقه ، بنيته ، ابعاده ، ماهياته وظواهره تتجمع في معناه .

والعمل الادبي موجود ، فهو معنى .

قلت إن الاديب يعيد انشاء الواقع صورا . بهذا يخلق عالما جديدا له احداثه وابطاله ، احواله وحالاته ، أقاليمه ، صعوده هبوطه وشرايينه . . . له فسحته غير الفسحة المكانية التي توجد فيها الاشياء واياها . ويجعل من هذا الواقع واقعك ، ومن هذه الفسحة فسحتك . ولهذا العالم معناه منه ينطلق وفيه يتجمع ، يتوحد ويشير الى مستقبل ما .

ويبدو لي ان صدقي الذي ربته ، كأبناء جيله ومن سبقهم قراءة التراث العربي ، ومنه انطلق ليناضل من اجل العروبة ـ بالاحرى قرأ التراث وهو يناضل ـ راى فيه الاساسي مما يعوزنا اليوم وهو الحرية . « من حكمة العرب القدماء انهم كانوا احرارا . . . يمارسون حريتهم دون ان يفكروا بها او يتحدثوا عنها كثيرا كما يفعل الناس في هذا العصر . كانوا يرونها فعلا وتجربة ، شيئا يشبه تدفق الينبوع في قلب الوادي وانطلاق النسر في اجواء الفضاء . يقول الرجل كلمته دون خوف ولا حذر ولو أدت به الى الموت » (الينابيع ، عام ١٩٥٤) (١ ـ ٣١٨ ما يلي) ذلكم هو السؤال الاشكالي :

كنا يوما احرارا فلم وعلام فقدنا حريتنا ؟

كانت لنا يوما شخصية قومية متميزة ثقافيا وسياسيا تفرض ذاتها واحترامها وخطها على الامم الاخرى . فلم تفككت وتهلهلت وصار الناس يشكون في وجودها ؟

كنا يوما سادة مصيرنا ـ ومصير العالم ـ فلم يسودنا اليوم الاغيار؟ فمفاهيم الخطيئة والقدر والشر تشير الى عقدة عصية على الحل، الى لغز يتحدى العقل اكثر مما تحيل الى واقع تستطيع مشاهدته وتحليله او وصفه . أفنشير ايضا الى ان وضعنا ميئوس منه، أو أنا مانزال في مرحلة الانحطاط؟ هذه احدى نتائج كتاب « العرب وتجربة المأساة » (١ ـ ٢٨٩) . ولكن

الاعمال الادبية التي تلته تقول شيئاً آخر . فكلها عينات ـ لوحات متقطفة من الواقع العربي بدءا من اواخر العهد العثماني والى بدايات السبعينات ، تعري هذا الواقع ، تسبر امكاناته ، تنقده ، تقيمه ، تشير الى تحوله وتدل برفق على السبيل الى تقويمه . فثمة النهضة وبدايات المجتمع الحديث والدولة العصرية ، التمرد والثورة .. ويعمق صدقي احيانا نظرته الفنية ـ النقدية فيطرح بعضا من مشكلات الانسان الكبرى منها الحب والموت ، الحرية والقدر ، عظمة الانسان وبؤسه ...

ويبقى السؤال ـ المنطلق هو هو : حريتنا ، شخصيتنا الحرةالبارحة وغدا ؟ (والحاضر دوما انتقالي) . والحرية وجود هو الوجود .

ويرحل صدقي وهو في الطريق الى السؤال . اقول : الى السؤال ، لا الى الجواب . فجواب الفكر هو تعميق السؤال .

وكل سؤال اساسي يعالج مرحلة على طريق الفكر التي لاتنتهي .

ماساة الانحطاط

تكاد تكون كافة النصوص المنشورة في المجلد الاول عن مؤلفات صدقي الكاملة تحت عنوان « صور عربية » (١ـ١٩١ او ٢٧٧ وما يلي اكثر من مائتي صفحة) محاولات لسبر الشخصية العربية ـ الاساس من حيث هي كيان اجتماعي ذاتي مسئول . الا ان اطول هذه النصوص واكملها واعمقها هو بدون شك « تجربة المتنبي » (١ ـ ٢٧٧ وما يلي) الذي ابقاه صدقي مخطوطا لاعتقاده ، على ما يبدو ، انه هام فيجب عليه ان يزيده دقة واتقانا . ولقد وفق صدقي حقا في اختيار المتنبي ليهديه الى النموذج ـ الاصل للعربي قبل المدينة ، او في حضارة الصحراء ، وفي اختيار النموذج لانه مايزال ، بشكل او بآخر ، قائما حتى اليوم في كل منا فردا

وجماعة يستدعيه ، يستثيره من الداخل . فالمتنبي يبدو في حياته وفي شعره وكأنه شاعر جاهلي ضل الطريق فوصل متأخرا ثلاثة قرون ونيف عن اقرانه . وتلك مفارقة شاعرنا الاكبر : انه مدني الانتماء جاهلي الخلق والسلوك . ومن ثم فان حضارة ما لا تكشف ، من حيث المبدأ ، عن كافة مضامينها الا عندما تشارف على نهايتها ، وحضارة البادية ماتزال منذ القرن الرابع وحتى اليوم في الطريق الى نهايتها . الا اننا ، نحن عرب اليوم ، فقدنا الاصالة ــ التي صارت فينا حلما ــ وفقدنا معها القدرة على استدعاء شخصيتنا الاولى ومعايشة شاعريتها .

كان شعر الجاهلي بعدا من ابعاد وجوده . كان بالاحرى وجوده بيانا . وكانت ، لهذا ، شاعريته على درجة من القوة والرفعة مكنته من ان يفرض ذاته علينا رغم القرون الاربع عشرة التي تفصل بيننا وبينه . ولكن المتنبي حقق مالم يكن بوسع الشاعر الجاهلي تحقيقه ، وهو أن يعيش ويفكر مايعيش ، أي ان ينشيء الفسحة التي تجعله يستخلص ابعاد الوجود الجاهلي القائمة فيه ويقولها شعرا. فالشعر والفكر عندهمتحدان.

والنموذج الاكمل للعربي ، كما يستخلص صدقي من المتنبي والشعراء الجاهليين، هو الفارس المحارب الشاعر يحمي حماه فلا ينام على ضيم ، يقري الضيف اذا قصده ، يجير المظلوم اذا استجاره ، يحمي الضعيف اذا دخل داره . . . ولا يحسب حسابا للعواقب . وتلك حريته : انه سيد قومه ، وسيد قدره ، يصمد في وجهه ، يتحداه ، دوما مرفوع الراس ، يموت ولا يلين . لقد وُجد للامر العظيم ، للبطولة ، وحدها ترضي كبرياءه، تضعه فوق الاعراف والقوانين ــ هو يسنها ــ ، فوق الجماعة ــ به عزتها ــ فوق الناس ــ انه الانبل بينهم .

واقدار العربي كثيرة . فالصحراء ، جفافها ، شحها ، رمالها المحرقة ، رياحها اللاهبة ، سهوبها اللامتناهية كالعدم . . . كلها تحاصره

كما يحاصر الموت الآحياء . والصراع في الصحراء لا يهدأ ، على الماء والكلأ، على الموقع والممر ، على مورد الرزق ... على المراة ... على السيادة . فالسلم هدنة ، والحرب نسيج الحياة اليومية . انها قدره ، وفسحتها محك رجولته ، فيها ينتزع شرفه بحد السيف ، كما ينتزع حياته من براثن الموت الذي هو قدر الاقدار . الا أنه يريد هذه الحياة فعلا هو ملء الوجود ، ومتعة تشبع جسده الذي لايرتوي . انه لايؤمن بالافكار ، يريدها لتوها عملا . انه انسان الفطرة يركن الى غرائزه وحواسه وعليه ان يشبع نهمها الى الحياة ، الى المراة والخمرة والقتال ، لكل منها مذاقه القوي ونكهته العنيفة . وكلها تطربه فينشدها شعرا . واذ يرتوي جسدا. اذ يدرك حد الاشباع ، يذهب الى الموت راضيا ، بمعنى ما يستدعيه ، يختاره (١-٣٧٣ مصرع طرفة)

والعربي يقدس الاصالة والاصل . فالاجداد نموذج ، الاحفاد دوما مقصرون عنه ، والحاضر دوما متخلف عن الماضي (١) .

لقد كانت لهؤلاء الرحل حياة روحية غنية نكاد لا نعرف عنها شيئا مع الاسف . وربما أن تقديس الاجداد كان ركنا من أركانها . وركنها الثاني الشعر فيه يجد ابن البادية الحكمة والجمال ، الحقيقة وايقاع الوجود ، ونهجا اليه يسلكه ما استطاع الى ذلك سبيلا . في حين تبعث المراة في هذا الوجود الحياة والروح والفرح ... والرغبة في الامر العظيم(١) .

ويتساءل المرء وهو يتأمل هذه الصورة ما اذا كانت المسافة بين المتنبي والجاهلية ذاتية أم تاريخية ، وبالتالي ما اذا كان عاش الجاهلية

---

(١) هذه الخلاصة اقتبستها من دراسات صدقي التي قلت انها منشورة في المجلد الاول من مؤلفاته الكاملة (١ - ٢٧٢ - ٢٨٦) وبصورة خاصة « تجربة المتنبي » . وقد أكون اضفت اليها عناصر اعتقدت انها لا تتعارض مع فكر صديقي الراحل .

وجودا أم خيالا ؟ وجوابي هو انه لو لم يعشها لما تمكن من ان يؤديهــا بشكل يجعلك تعتقد انه جاهلي ... ولكن بالمقابل لو لم يكن بينه وبين الجاهليين فاصل ذاتي — نفسي هو نتيجة الفاصل الحضاري والتاريخي لما تمكن من ان يتبين بوضوح ابعاد الحياة الجاهلية فيسميها بأسمائها وبمعنى ما يحللها . والمتنبي أول من يعرف ذلك . أو ليس هو القائــل

جاء الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وجئناه على هرم

والصورة وان كنا نقول عنها انها طبق الاصل ، فهي غير الواقع واياه. وكلمة « مغايرة » تشير الى الفاصل بكافة انواعه ، والفاصل لا يتجاوز . الا ان انواعه لا تتناسب بالضرورة بعضها مع البعض الآخر ، لا طردا ولا عكسا . فالوجودي او الذاتي ليس تابعا للزمني .

والدليل على ذلك هو ان المتنبي ، (٣٠٣ — ٣٥٤) وان كان متأخرا عن ابن دريد (٢٢٣ — ٣٢١) بحوالي (٨٠) ثمانين عاما فهو متقدم عليه وجوديا ، قرنا او قرنين(١) فالمتنبي يبدو في القــرن الرابع وكأنــه شاعر فارس شارد من الجاهلية ، يطوف المشرق العربي بحثا عنها ولا يجدها فيشتم الزمان واهله ، في حين يرى ابن دريد — وهو أيضا عربي الاصل (من قبيلة الازد) والانتماء — في الفارس الشاعر شبحا يتباعد باستمرار ، وفي العربي الاصيل نموذجا من الناس فقدناه الى الابد . مع المتنبي ينتهي الشعر العربي كما قلت. في حين ان بوادر الانحطاطواضحة، يعدد ابن دريد في مقصورته اهم ظواهرها : انه كالجرثومة وجدت منفذا الى الجسم السليم فولجت منه ومع الزمان تكاثرت : وافقدت الجسم صورته الاولى . وبالفعل فاننا نتبين معالم المرض بشكل أوضح بعد حوالي

(١) انتهت الجاهلية نظريا مع الاسلام . الا ان شعرها استمر — هو كما هو — حتى شق له ابو نواس طريقا جديدة انقذته .

قرن ونصف عند ابي العلاء (٣٦٣ ـ ٤٤٩) الذي يئس من الشفاء على مايبدو فامتنع عن الزواج والانجاب .

لم كان هذا الهبوط السريع ، انهي عصر الفتوحات على صعيد القيم والعلائق الاجتماعية والانسانية قبل ان ينتهي على صعيد التاريخ ؟ اهي الحياة السهلة المترفة في المدينة كما سيرى ابن خلدون ؟ ام هي الصراعات القبلية انتقلت من البادية الى المدينة ، حيث لا مكان لها ؟ أم انه التعريب عجز عن استيعاب الشعوب فاستولت هذه على الامة ومزقتها ؟ ام ان الفتوحات استنفذت طاقة الامة ، فراحت الشعوب تصطرع على تركتها؟ لكل من هذه العوامل والاسباب دوره بدون شك : الا انها كلها وغيرها مجتمعة لا تحل لغز صعود الامم وسقوطها . وهذا ما دفع صدقي الى تصدير بحثه عن الموضوع بتحليل ـ جزئي وناقص بالمناسبة ـ لمفاهيم الخطيئة والشر ، القدر والعدم ، الخ . وعلى اية حال فما فائدة البحث عن اسباب والواقعة الرهيبة ماثلة للعيان منذ أواخر القرن الثالث الى ايامنا ، يمكن لاي حكيم متبصر كابن دريد (١ ـ ٣٤٩ ـ ٣٦٧) ان يسجل ظواهرها ؟ ومنها التمزق والانقسامات الداخلية افلتت من يد أولي الامر ـ فهم منها كالانسان العادي في موقف المتفرج ، احدهم اليوم في القمة وغدا في الحضيض . لقد تفرغ المجتمع من الداخل فهو فوضى ، الناظم لها الاعراف والشكليات على الفرد ان يتقيد بها ايا كان الثمن ، فالظاهر اهم من الباطن ، الزيف احق من الحقيقة والكذب اصح من التنافس والبطولة ،والطرق الملتوية اجدى من الطموح والاعتداد بالنفس . فالجماعة مجموعة افراد كل منهم يسعى لتامين مصالحة الخاصة بكافة الوسائل، المشروع منها والغير مشروع . ويصبح كل خروج عن المألوف ، في مناخ كهذا ، مجازفة يقاومها المجتمع : انها غير محمودة العواقب ، وكل مالا علاقة له بتأمين الحاجات الاساسية زائد قلما يثير الاهتمام . فالشعر ترف وليس من طبيعة الحياة ، كما كان في السابق ، والشاعر ليس

معلما للحياة كما سيريد المتنبي (١ — ٢٧٧) . انه في احسن الحالات كابن دريد ، حكيم يعيش معزولا على هامش المجتمع ، بعيدا عن صحبه . وتأثيره في الناس ضعيف . وفنه يقتصر على تسجيل تصرفاتهم الملتوية وتنبيههم اليها اذا كان بعد ثمة من ينتبه .

تلك كانت بدايات مأساة الانحطاط التي سيطرت على صدقي في السنوات الاخيرة من حياته (وربما قبل ذلك) وهي التي دفعته الى تكريس دراسة خاصة بمفهوم المأساة(١) بذاتها ومن ثم عند اثنين من أعلام الغرب هما ريمبو (٢ — ٢٣٢ ومايلي) وفان غوخ (٢ — ٣٧٩ ومايلي) عله يستجلي معالم مأساة الانحطاط ، عله يمهد السبيل لتخطيها .

ليست المأساة ذاتها بالامر السيء في نظر صدقي : فقد كانت منتجة عند الشاعر الفرنسي والفنان الهولندي وغيرهما . واعتبرها الباحثون من أقدم « حوافز العمل والفكر » وهي بداية كل يقظة ، حيث تأخذ شكل رفض وتمرد ، لا بل هي في بداية كل حضارة . ولكنها ايضا في نهاية كل حضارة (١ — ١٩٦) .

الواقع ان صدقي لم يوفق في محاولته تحليل مفهوم المأساة . فالاربعون صفحة الاولى من الكتاب، وهي المكرسة لهذا الموضوع ، تراصف بعضها الى جانب البعض الآخر آراء بعض الفلاسفة (افلاطون وبوذا ، شوبنهور وكيركتجارد الخ) ، ونظريات بعض المذاهب الدينية (البراهمانية، المسيحية ، الاسلام ...) عن المفهوم دون ان تتمكن من الكشف عن أبعاده الاساسية ، فيمكن اعتبارها بمثابة تمهيد لدراسة مأساة الانحطاط التي هي ، في اعتقادي ، موضوع صدقي الاساسي ، أقصد الذي استأثر

(١) اقصد الصفحات الخمس والعشرين الاولى من كتاب (العرب وتجربة المأساة) المذكور .

بمشاعره ووجدانه في السنوات العشرة الاخيرة من حياته كما قلت. وبالفعل فليس من العسير على القارىء ان يستخلص من العرض التحليلي المشتت في مقصورة ابن دريد وفي الكتاب (١ – ٢٣٦ ومايلي) الخصائص الاساسية للانحطاط الـذي هـو مأساة العرب الكبرى اليـوم وفي الامس القريب والبعيد . كما ان الاعمال الادبية التي اعدت قبيل الكتاب وبعده هي بمثابة سبر لصراع العربي مع فقره الروحي والمادي ، مـع الاستغلال والتسلط المسيطرين على مجتمعاته ، مع أعراف الماضي التي تكبله ، مع جسـده الذي لا يرحم ، مع الاوهام التي كونتها لديه النهضة والثورة... وباختصار فهو سبر لصراع العربي مع التخلف ، ولكنه ايضا سبر لامكانات تخطي هذا التخلف او الخروج نهائيا من عصر الانحطاط .

واولى خصائص الانحطاط التمزق الداخلي الذي اشرت اليه وبالاصح الانفصام بين الانسـان الواقعي المنكفىء على حاجاته اليومية والانســان الداخلي « كصبوة الى الحياة الجميلة » هذا يختار مصيره بحرية ، وذاك « صورة كئيبة للعبودية والاستسلام كانه شيء تافه يعبث به القدر . وبين الاثنين هوة سحيقة يعجز المرء عن تجاوزها فيستسلم لقدره (١ – ٣٥٦). هذا الاذعان يجده صدقي عند المتنبي ذاته على انه « الموقف الانساني الوحيد الذي يعبر عن الوعي والحصافة » (١ – ٢٤٢) . فكان لشاعرنا الكبير وجهين : الواحد موجه نحو الماضي الاول حيث التمرد على كل شيء، والثاني نحو الحاضر حيث الاستسلام البائس والفاجع حتمي ، كما يقول عن المعري (١ – ٢٤٤) . فالاعتقاد بحتمية القدر هو الخاصة الثانية ؛ وصورة القدر العامة عندهم هي الزمان الذي لا يستطيع الانسان الافلات منه ، اما صورته العيانية فهي الدولة التي لا مرد لحكمها الجائر (١ – ٢٥٦ وفي اماكن اخرى) .

ويشعر الانسان انه مهدد في وجوده ، فالموجودات كلها في نظره الى زوال يخيم عليها شبح الفناء الذي يبتلعها موجودا اثر موجود . فالمحرك

للسلوك ليس الصراع من اجل الاكمل والانبل كما كانت عليه الحال في الجاهلية ، بل من اجل الاستمرار في البقاء ، وليس من اجل السيادة ، بل من اجل القوت اليومي (الخاصة الرابعة) . بهذا تفقد الحياة معناها ، فالانسان ملوث وسلوكه مزيف ومظاهره كاذبة (الخاصة الخامسة) وتبلغ مأساة الانحطاط ذروتها عندما يتراخى الوعي ويتبلد العقل ويفقد الانسان البادهة ، فيتوارى حس المأساة ذاته .

وندرك النهضة ، بالاحرى تدركنا وتستثير احساسنا باحداثها الخطيرة ، الا ان فكرنا مايزال عاجزا عن التلاؤم مع الواقع ، فبينهما تعارض يبلغ ايضا حد الانفصام . يقول صدقي : فثمة « هوة سحيقة تفصل بين ما يحياه الانسان في الواقع الحي من تجارب التمزق الفاجع » وبين تناقضات الفكر وسلبيته ، اضطرابه ولفظيته (١ ـ ٢٦١) ويضيف: « في ظل هذا التمويه تعلو الشعارات في اعنف مظاهرها الثورية دون ان تمس الواقع ، بل تصبح ملجأ يلوذ به الانسان حين يفتقر الى التصميم الحر » (١ ـ ٢٦٤) فحصيلة النهضة اوهام خمسة (١ ـ ٢٦٥ ومايلي) هي : وهم الحقيقة ، وهم الاستقرار ، وهم الثورة ، وهم الفردية واخطرها الخامس وهو وهم الذاتية ، اذ انه يخلع على سديم النزوات والمشاعر والافكار طابع الذاتية الحرة الواعية . وفي ظل هذا التخفي المرائي تهيمن روح « الوحدانية » على العقلية العربية . اما ان تكون الاوحد في اي ميدان ، واما انك واحد من القطيع ... واذا كان لك الرأي الصحيح فلا مكان لراي آخر ... وليس من العسير أمام هذا الوهم أن تكلل الرؤوس بالغار لمجرد انها ارتفعت ، سواء في ذلك كان اصحابها ابطالا حقيقيين او مشعوذين ، شهداء او رعاعا يتاجرون بالفضيحة والعار » (١ ـ ٢٧٦)

بهذا الحكم الواعي والعنيف يختم صديقنا كتاب (العرب وتجربة المأساة) .

النهضة الاشكالية

هل ادانة صدقي لحاضرنا المستمر حتى الستينات وبعدها قاطعة ونهائية ؟

قلت ان انضج مؤلفات صدقي واعمقها هي التي وضعها في الستينات قبيلها وحتى اواخر حياته . والكاتب ، اذا كان اللهم صادقا مع ذاته ، لا يمكنه ان يأخذ القلم ويبدأ تاليفا ما الا اذا كان ثمة امل مـا بخلاص مجتمعه قد لاح له ــ كامكان على الاقل . وكذلك المدرس المخلص عندما يبدأ درسه ، والسياسي المصلح اذ يدعو الناس للالتفاف حوله ، لا بـل ان الادانة تشير الى ان صاحبها يتوقع ان تحدث ــ او تسهم في احداث ــ يقظة لدى الذين تطالهم ، واوهام الحقيقة والثورة والذات ... تشير الى ان صاحبها باحث ضل الطريق او خدع ذاته ، فهو خير من الـذي لا يبحث . وصدقي كان ، كابناء جيله ، يحلم ، يريد ، يعمل ، ينقد ذاته .. ويتأمـل .

بوسعنا ان نتميز في تاليفه ، فكريا وانطلاقا من مفهوم الحرية او الشخصية القومية الحرة ، ثلاث مراحل متوالية : الحرية ــ فقدانها ــ محاولة استعادتها . والمرحلتان الاولى والثانية بمثابة تمهيد للثالثة . او ليس الماضي ، في منظور ، الحاضر الا ، اعدادا للمستقبل ؟ ومن ثم فان صدقي كان ــ سياسيا ــ مـن بناة المرحلة التـي سبقت الستينات . وبعدها ، وان كان قد بدل وسائله فانه لـم يفارق دقيقة واحـدة ساح المعركة . فادانته للماضي ــ ماضيه وماضي آبائه واساتذته ــ الذي مايزال حاضرا بحضور قوي ، تشير الى تحقيق هدف آخر غير النقد الذاتي ــ وصدقي مؤهل حقا له ــ الا وهو تعرية مرحلة النهضة منذ بداياتهافي القرن التاسع عشر ، والى ايامنا مادمنا مانزال عاجزين عن النهوض بهـدف الحرية والاستقلال .

وفي اعتقادي ان المفهومين الاساسيين المتعارضين — والمتكاملين في المرحلة الراهنة — اللذين ، يمكن استخدامهما لقراءة فكر صدقي الادبي هما : العصيان والعطب . فالعصيان — ومنه عنوان رواية « العصاة » — هو النقد والرفض ، الخروج عن المألوف والتمرد عليه ، الانقلاب والثورة... والعطب ، عنوان احدى قصص مجموعة « الله والفقر » (٣ — ٤٦٣ ومايلي) هو ضعف الشخصية ، هشاشتها ، فقرها الذاتي وفقدانها كل مناعة . انه من شأن انسان الانحطاط ، في حين ان العصيان هو بالمقابل مـن شأن انسان النهضة . وتحصل المأساة من تواجدهما . فالعربي يود ، يريد .. يحاول التمرد على التخلف ، يجهد من اجل تحطيم قيود الماضي . الا ان ثقل التاريخ الذي يشده دوما الى الوراء ، يقف سدا منيعا في وجهه... وقد يصرعه وذلك هو العطب : شخصية جماعية منقسمة على ذاتها . والماضي ليس سببا خارجيا : انه بعد من أبعاد شخصيتنا . فكل خروج عنه او عليه بمثابة طعنة نسددها الى ذاتنا . او كأنه — وهذا هو الواقع — ضرب من ضروب اكل الثمرة المحرمة . والخطيئة الاولى — الموضوعية — تستدعي الموت وان كانت قد فرضتها الظروف وأملتها المرحلة أو جاء بها التطور ؟ ...

وكذلك عواقبها . انها كالقدر . انها قدر ، ومن مزايا مفهوم القدر انه يوازي بين السبب والنتيجة حيث لا يتوازيان .

فالمأساة في التعارض بين نهضة الانسان العربي أو خروجه على سنة الماضي وبين حتمية هذا الخروج الذي ستكون نتيجته الموت معنويا ، ان لم يكن جسديا . مأساة موضوعية ، بالاضح وجودية ، موقعها بين الاستسلام والتمرد ، بين العطب والعصيان ، بين السقوط والصعود ، بين التخلف وتجاوزه ، وهو موقع صراعي قائم باستمرار في ذات الانسان العربي وفي مجتمعه .

والصراع هذا متعدد الاوجه : مع الماضي ، مع الاباء والاجداد ، فهو صراع اجيال . ونستشف في بعض مؤلفات صدقي الادبية بدايات تحوله الى

صراع طبقي ، ايضا صراع مع القيم السائدة بشكل أعراف وتقاليد مـن اجل تجديدها ، صراع مع الذات التي لا تنفصل عن ارثها الحضـاري والاخلاقي من اجل تبديلها ، صراع بين القوى التي يستثيرها المنعطف التاريخي ، صراع في الحاضر على المستقبل ...

ويحدث صدقي في العينة التي يدرس مقطعين : الواحد عمـودي ــ كما في تاريخ آل عمران (رواية العصاة) ــ والآخر افقي ــ كمـا في مسرحية ايام سلمون ــ . وقد يمازج بين الاثنين (تطور اسعد الوراق في قصة الله والفقر من المجموعة التي تحمل هذا الاسم) . ثم انه يرقى احيانا بهذا المقطع الافقي الى مستواه الفلسفي (صراع الحرية والقدر في قصة حب المرقش الاكبر) او (صراع الحب والموت في رواية الحادثة) . وفي بعض مقاطع من مسرحية (عمار يبحث عن ابيه) يحاول ان يتجاوز التعارضات كلها عموديا الى التعارض الذي يتسـع لها كلها وهو بـين الطبيعة وما بعدها .

فالعصاة[١] تروي سيرة اجيال ثلاثة من اسرة آل عمران في ثـلاث مراحل هي عهود سورية الثلاثة الاخيرة : العهد العثماني فالانتداب واخيرا الاستقلال . وتبدأ بمحمد آل عمران الذي يبدو له العالم وكأنه مـؤلف من ثلاث سلطات اقطاعية متسلسلة او ربوبية : الله الخالق له ملكوت السماوات والارضين ، فالسلطان العثماني مفوضه على الارض ، واخيرا الملاك المستقل نسبيا ضمن اقطاعه . ولكل من الثلاثة سلطانه المطلق على ممتلكاته ، اناسا واشياء ، الادنى بتفويض من الاعلى . ويتسع المسرح مع أولاد محمد الثلاثة ، وتظهر معهم بوادر التحول الاولى : فعباس

(١) هي الجزء الاول من ثلاثية روائية رحل صدقي قبل ان يضمها . ولا ادري ما اذا كان القسم المكتوب من رواية « الحادثة » (٥ – ٣٦٩ وما يلي) هو بداية الجزء الثاني أم لا . وعلى اية حال فان العصاة تشكل عملا متكاملا .

وابراهيم اللذان ، وان كانا ، لايزالان محافظين على التقاليد والاعـراف بحرفيتها ، فهما ينفصلان عن والدهما ليعيشا ، الواحد في اللاذقيـة والثاني في دمشق . وسعاد هي التي تتمرد ، ومعها يبدأ العصيان فعلا، اذ تهرب ورجل من عامة الناس وتتزوجه .

ويعدد صدقي مع الجيل الثالث النماذج الانسانية والقوى الاجتماعية فلا يحتفظ من آل عمران حتى النهاية سوى باثنين عدنان بن ابراهيم وعالية ابنة عمه . وكلاهما يتعلمان ويختلطان بالشباب المثقف . ومـع الجيل الثالث يبدأ النضال من اجل الحرية والاستقلال اولا ، ومن ثـم من اجل تحرير الشعب واشراكه في تقرير المصير العام . لقد تغير وجه سورية كانت قبل حوالي نصف قرن مؤلفة من اسر اقطاعية لكل منهـا استقلالها وهي تتعاون مع الوالي العثماني في تدبير شؤون البلاد . امـا الآن فقد ارتدت هذه الاسر الى المرتبة الثانية نشكلت مع الكهول وبعض المتخلفين ثقافيا كتلة رجعية بينها وبين الشباب صراع على القيم التـي تركزت حول محاور ثلاثة : الدين ، تحرر المرأة والمسألة الاجتماعية . فلا يتورع احد الاستاذة عن طرح مسألة وجود الروح على احد طلابه في الامتحان (٣ ـ ١٧٣ و ٢٥٤ وفي اماكن أخرى) وثمة طالب آخر في الحقوق يدحض في الكلية آراء استاذه مدافعا عن الاشتراكية (٣ ـ ١٨٩ وفي اماكن اخرى) .

فالقوى ـ القيم الجديدة هي الثقافة على الخصوص في شكلهـا الاجنبي ، والسياسة في منظماتها الحزبية ولا ادري لماذا قلص دورها هي ورجالتها واخيرا الثورة ـ قمة العصيان ـ التي بدات بوادرها الاولى .

ولا يدري القارىء من الاكثر تطرفا في حمل هذه القيم والدفاع عنها : الشباب الذين يجاهرون احيانا بالالحاد او بالتحلل الاخلاقي ام المرأة التي تفاخر بتقليد العادات الغربية ... لقد شدد صدقي على الجانب الايجابي

لدى الجيل الثالث الذي هو جيله . فاحدى النساء ، مثلا ، تطلق زوجها الثري الدمشقي لغبائه وترفض الزواج من وزير لضعف شخصيته . الا انه يلاشي في الخاتمة الجيل الثالث برمته وكانه يقول ان هذا الجيل — جيله — هو ايضا غير قابل للاستمرار . انه جيل معطوب .

لغز الحب . لغز الشعب . لغز الوجود

ان التعارض بين القوى — القيم القديمة والمستحدثة، هو المحرك لصراع الاجيال ، وايضا للصراعات الاجتماعية الاخرى ومنها الصراع الطبقي الذي تظهر بوادره الاولى في رواية (العصاة) مع المثقفين والسياسيين التقدميين ، فكلاهما يضع الجماهير الشعبية في مواجهة القوى الاقطاعية والبورجوازية ، وهذه الجماهير التي ستستلم السلطة وتقوم بتبديل المجتمع . ويتنوع صدقي التعارض ، فيوسعه ويعمقه في اعماله الادبية اللاحقة بالرجوع الى بداياته التاريخية (ايام سلمون التي تعيدنا الى العهد العثماني) او الشعبية (قصة الله والفقر في المجموعة التي تحمل هذا الاسم) او في نقد البورجوازية وكانت في بداياتها ، وتعريتها بحيث تبدو وكانها ، هي ايضا ، غير قابلة للاستمرار، اقله كما هي عليه (القصتان المنشورتان في مجموعة الله والفقر ، وهما العطب وقبل السهرة وقصة مذكرات الحاج عبد القادر) . وقد يتخطى التعارضات الاجتماعية — او يستند اليها ليتخطاها — الى جذورها الاولى اقصد تعارضات الوجود الكبرى كما اشرت الى ذلك وكما سنرى عن قريب . فالمأساة في حقيقتها انطولوجية . اوليس العطب — الاساس هو الموت ؟ والتمرد قوة الحياة التي هي عطاء متجدد . فالعطب هو انعدام او ضعف مقومات الحياة . وتبلغ المأساة لدى صدقي ذروتها عندما يدفع بالتعارضات الى اقصى ما يمكن ان تدفع اليه . فالبطل في موقف

حدي . والحدي يراوح دوما بين الحياة والموت ، بين الاستسلام للظروف فثمة سيطرة القدر او التغلب عليهما فثمة الحرية .

ففي مسرحية « ايام سلمون » (٥ – ٢١ وما يلي) يضع صدقي في مواجهة مجتمع محافظ الى ابعد حدود المحافظة ، رجالاته الوالي العثماني والآغا قائد الانكشارية ، قاضي القضاة ، كبار التجار والمحتكرين ورجال الدين ... يضع المشرفة على دور البغاء في دمشق ، والفائقة الجمال والذكاء . تبدأ المسرحية عندما تغوي سلمون هذه التهامي ، من كبار تجار المدينة وتتزوجه ، فينتحر اخوه الاصغر – من رجال الدين – احتجاجا على الفضيحة . ويرى الآغا الفرصة سانحة لاشتعال الفتنة . فها هي الاسواق مقفلة والشعب في هياج ، والتجار ورجال الدين يتظاهرون بالغضب ، وفي الوقت ذاته يبحثون عن الفريق الاقوى ليقفوا الى جانبه . في هذا الظرف الحرج يحاول الاغا فرض شروطه على الوالي لاخماد الثورة . الا ان هذا ، وان كان في بداية ولايته ، فهو الادهى والاسبق . كان بالفعل قد سلح سرا فلاحي الغوطة الذين يعتقلون الاغا ، فيعدم بأمر من الوالي الذي يسلم في الوقت ذاته سلمون وبناتها الى الشعب كبش فداء . ويفرض بالمقابل على التجارة والتجار قيودا لصالح الشعب .

نشرت ايام سلمون عام ١٩٧٢ . وكان صدقي قبلها بقليل قد عرى في ثلاث قصص قصيرة أشرت اليها ، البورجوازية بكافة ممثليها (حكامها تجارها ، مثقفيها ، نساءها ، كتابها ...) واوجهها (قيمها ، سلوكها ، فلسفتها او نظرتها الى العالم ...) . فالموجودات اناسا واشياء كما تراها سلع عليك ان تتاجر بها . والرابح ، اية كانت الوسيلة ، هو الافضل ، اذ ان وجودك ثروتك ، فمراتبه متناسبة مع ما تملك ،

الناس . ولذاته ثلاث : الاكل والكسل والصلة الجسدية بالمراة (مذكرات الحاج عبد القادر ٦ ــ ٣٩٧ وما يلي) . أما المعنى ــ القيمة الناظم للعلائق الانسانية ــ ومن جملتها علاقة الرجل بالمراة ــ فالنفعية . ولهذا فالتزييف هو السمة الابرز للعقلية البورجوازية : تزييف المؤسسات (مثلا الزواج ، التجارة ، الدوائر ...) والقيم (ومنها الجمال والحب) وكذلك الفن والادب) فالبورجوازي ، وان كان في اعلى المراتب الاجتماعية أو الحكومية ، يخشى ، بسبب من ذلك ، مواجهة ذاته ومصارحتها بالحقيقة (قبل السهرة ٣ ــ ٤١٧ وما يلي) . انه معطوب داخليا يخدع نفسه اذ يخفي عقده وراء ستار من المثالية ، ومن الشهرة سرعان ما ينكشف للاخر الذي يفقد عندها ثقته بنا ويجعلنا نفقد ثقتنا بذاتنا (العطب ٣ ــ ٤٦٣ وما يلي) .

ونقيض البورجوازي هو الانسان المنبثق حقا من اعماق الشعب الاكثر فقرا نفسيا وماديا ، فهو لا يملك ــ لا يأمل أن يملك ، لا يتوقع ان يملك ــ أي شيء ، الا اللهم قوت يومه ، ولكنه بالمقابل لا يخشى فقره . لقد الفه ، عاشه ، صار طبيعته . فلا يحسب اي حساب للمستقبل ولا مكان بالتالي للقلق في قلبه . انه بسبب من ذلك حر داخليا بحرية كاملة ، فعفويته واخلاقيته البدائية تدفعانه تلقائيا نحو الاعمال النبيلة . أضف ان ارث اسعد الوراق ــ البيولوجي (قصة الله والفقر ، وهي الاولى في المجموعة التي تحمل هذا الاسم ٣ ــ ٣٩٢ وما يلي) كان مجموعة من العقد والامراض العصبية جعلت منه انسانا ابله . فهو يتلقى الطارىء ، شرا كان ام خيرا برضى كامل واستسلام مطلق لقدر الله الذي لا يرد . والواقع انه لا يرى ابعد من اللحظة التي هو فيها . فعربه هذا يجعله جاهزا بجاهزية داخلية كاملة قد تضعه بمستوى الابطال . وهذا ما حدث فعلا . فقد سجن ثلاث مرات ظلما وعدوانا . واعتبر

خطرا على القرية فابعد عنها ، وها هو يستقبل في كهف منفاه لصا متمردا على الحكومة . وتداهمهما الشرطة فيدافع اسعد عن ضيفه وزميله في الفقر والتشرد وتلقي الظلم ، ويصر ببسالة على الدفاع فيموت برصاص الشرطة ، وهو يعتقد انه ينفذ امرا الهيا .

لم اعتبر الشعب اسعد الوراق بعد وفاته وليا من اولياء الله فاقام له ضريحا صار الناس يتباركون بزيارته احتراما للثورة التي تنطلق ، لا من ايديولوجيات معقدة مفذلكة ، بل من الظلم تجاوز كافة الحدود ؟ ام لان الشعب الف عندنا تقديس كل ما هو اعلى او ادنى من متوسط الناس ؟ ام انه احترام الشعب العفوي للمواقف الحدية تضع صاحبها ايا كان بمستوى البطولة ؟

لغـز الشعب

ونجد بالفعل جاهزية اسعد الوراق على المستوى الاعلى لدى البطل الجاهلي الذي بارادته يتخلى عن ممتلكاته وعن ذاته من اجل هـدف اسمى .

كان صدقي قد قدم لنا في مسرحية سقوط الجمرة الثالثة (ه ــ ٢٦٥ وما يلي) التي نشرت عام ١٩٦٤ صورة عن القوى الشعبية التي بدات تتكون في صفوف المثقفين بعد نكبة ١٩٤٨ لتعارض البورجوازية الحاكمة في خطها السياسي وفي نظرتها الى المناصب . فالمسرحية متوافقة زمنيا مع العصاة وكأن شخوصها امتداد لشخوص الجيل القائت من الرواية

ولكن ها هو يعود في قصة « حب المرقش الاكبر » (٥ ــ ٣١٦ وما يلي) الى الجاهلية التي كان قد انطلق منها بعيد الخمسينات ليرسم لنا صورة اخرى للعربي الاصيل كما يتصوره ، وهو في مواجهة الحب والموت ، ويضعنا بذلك تجاه موقف حدي بعد اعنف من موقف اسعد

الوراق ؛ فوسيلة ـ الانسان عندئذ الى ذاته ـ التي هي هنا ـ الحبيب ـ لا يمكن ان تكون الا الصمود فالتلاشي ، تلك جاهزية الفناء في الآخر التي يحققها العري الداخلي والخارجي والتي تستطيع وحدها الاحتفاظ في المواقف الحدية للشخصية الانسانية بكل قيمتها . والمواقف الحدية صارت ، فيما يبدو ، سبيل صدقي الادب والمفكر الى عالمه في اواخر حياته .

فعوف بن سعد بن مالك (الملقب بالمرقش الاكبر) من قبيلة بكر يعود الى قبيلته بعد غياب طويل ، وكان قد رحل عنها ليبرهن لعمه الذي رفض أن يزوجه ابنته اسماء بحجة أنه غير قادر على حمايتها ، ان بطولته لا تقل عن شاعريته ؛ اجل يعود وهو فعلا مظفر . ولكن يجد ان الظروف المرة كانت قد جعلت عمه يزوج اسماء لفارس من قبيلة آل مراد ليكسبها الى جانب بكر في حربها الطويلة مع تغلب . وتبدأ مع هذا النبأ المفجع رحلة المرقش الى اسماء وسط طقس صحراوي عاصف ماطر يعريه أولا من وسائل دفاعه عن النفس (رفاقه ففرسه فسيفه) ومن ثم من مقومات الحياة . فالبرق يخطف بصره والاسد يهشم انفه ووجهه والاعياء يفقده قوته . شيء واحد بقي له حبه لاسماء الذي يحفظه في الحياة حتى تدركه الحبيبة وهو يلفظ انفاسه فيراها بأعجوبة ويموت .

ربما ، فيما يبدو لي ، ان العرب القدامى اخترعوا اسطورة الحب العذري ـ التي قد تكون لها جذور واقعية ما ـ ليعبروا عن هذه الحقيقة الوجودية وهي ان الحب الكبير يفعل بالانسان ، مبدئيا ، فعل الوجد الصوفي ، اقصد يسلخه عن ذاته ليذيبه في المحبوب الذي يجب ان يعيد له كيانه . الا ان هذا الحب ممتنع ، لا لان الاعراف والتقاليد ترفضه او لان ظروفا استثنائية تحول دون لقاء الحبيبين ... فهذه الاسباب وغيرها ـ وهي كثيرة تتبدل بتبدل البيئات ـ إن هي الا وسائل تعبر بها

الجماعة عن حقيقة تعجز أدواتنا التعبيرية عن أدائها ، وهي أن الحب والموت متلازمين . وهذا ما يقوله (الاكسير) في اسطورة تريستان وايزولت الغربية . انه لغز الوجود ، قاربه فرويد وخلفاؤه في بعض من أبعاده الجسدية ــ النفسية . والحب العذري يبدأ بفضيحة كما هو معلوم وقد يبدأ بتحد ، كما في اسطورة المرقش الاكبر . والاثنان ، البارحة ، استثنائيان ، واليوم عاديان . فالعلاقة المراة ــ والرجل في المرحلة الراهنة مجموعة تحديات للنظم الاخلاقية الموروثة ومجموعة فضائح في منظورها . وهذا صحيح ــ بذاته ــ لحد ما .

لغــز الحــب

يرفعه المجتمع الى أعلى عليين ، ويحطه فاذا به في الدرك الاسفل .

وتلك بداية رواية الحادثة (٥ ــ ٣٦٩ وما يلي) التي بقيت في بداياتها، ذلك هو بالاحرى موضوع الخمسين صفحة الاولى منها .

فبطلة الحادثة مثلثة الاسماء ، مثلثة السينات (سها ، سوسن ، سلمى) مثلثة الشخصيات ، فتاة قروية بعد في السادسة عشرة من عمرها مقطوعة الجذور ، كل ما نعرفه عنها انها تتقمص في حلب حيث وفدت طلبا للرزق ثلاث شخصيات : سها عبد المجيد فائقة الجمال والفتنة تبيع جسدها لتعيش كأي بغي عادية أخرى ، ومن ثم سوسن الفنانة المتميزة تتلاعب بقلوب الرجال وهي محط انظار علية القوم . وأخيرا الفتاة الريفية سلمى مايزال لها خفر القروية الوافدة حديثا الى المدينة وحشمتها كلها . وهي ، بهذه الصفة ، صعبة المنال . فالطبيب الذي كان من زبائنها والذي لا يرى في الحب سوى ارضاء غريزة جسدية عمياء ، ويكتشف يوما أن لها حبيبا واحدا هو معلم رومانتيكي ثوري بائس تبادله حقا الحب ، هذا الطبيب لم يتمكن ، الليلة ذاتها ورغم وجوده معها في

غرفتها بدار البقاء من امتلاك جسدها مع انها سلمته اياه . لقد اذله عنفوانها ورده خائباً . وبعدها بقليل يترك حلب عائدا الى دمشق .

تلك بداية ... بداية واعدة لرواية ، كل ما اقدره شخصيا هو انها كانت ستنتهي بوفاة البطلة . إذ ان في هذه الفتاة من الجاهزية ما يمكنها من الجمع بين المتناقضات الاجتماعية والوجودية . الا ان هذا الجمع لا بد وأن يحطم يوما صاحبه .

ان في رسائل صدقي (٦ ــ ٢٣٤ وما يلي) ومذكراته القصيرة جدا (٦ ــ ٢٥١ وما يلي) وبعض نصوصه الشخصية (٦ ــ ٢١٣ وما يلي) ، وكلها تقريبا وضعها في أواسط الخمسينات او بعدها بقليل ، ما يجعلني اعتقد انه كان يكتشف اذ ذاك لغزية الجسد التي هي لغزية الحب والوجود الذي هو فعل محبة .

افهذا الكشف هو الذي حاول استعادته في بعض كتاباته الاخيرة ؟ هذا ما ارجحه .

والانسان ، في منظور الفكر ، هو حيث تتقاطع اسرار الوجود ، فهو اياها ويفيض عنها . ومهمة الفكر ، شعرا كان ام فلسفة ، ادبا ام فنا .. تقوم ، لا على ان يحل الالغاز او يكشف عن الاسرار . فهذا ممتنع . ولكن أن يجعلها حاضرة بحضور فعال أمام الانسان . فحضورها حضور الانسان لذاته ولعالمه .

الوجود الانساني يستمد شاعريته ــ اقصد حقيقته ــ من شدة هذا الحضور وعمقه وسعته .

الا ان جعل هذا الحضور امرا واقعا ليس بالامر السهل على الكاتب الذي يجنح عند عجزه الى التسطيح بحجة الواقعية . فصدقي يحاول

ثلاث مرات كتابة الفصل الثالث من مسرحية « عمار يبحث عن أبيه » (ه ــ ۱۳۲ وما يلي) ويرحل وهو غير راض عن أي من الثلاثة(١) . وبالفعل فان بداية المسرحية اللغزية تضع المؤلف امام احدى خاتمتين : اما ان يواصل كما بدا ـ أو بالاحرى كما توحي البداية ـ اي بتعرية الثورة . وهذا ما تشير اليه الصفحات الاخيرة التي انتقاها محقق النص . فالاصوات المجهولة المصدر في اغلب الحالات التي تسمعها في الفصلين الاولين تصبح بمثابة اضافة شعرية او رمزية مفتعلة او ضربا من الكورس الذي يمكن حذفه . واما ان يعطي للاصوات هذه المقام الاول ـ وهذا ما كان يريده صدقي على الارجح ـ ، فالمسرحية ستنزلق عندئذ مع رمزية فلسفية غامضة تقول كل شيء ولا تقول شيئا .

تبدا المسرحية بمحاولة الفلاحين اقتحام قصر الاقطاعي منصور الحامد والاستيلاء عليه ، ولكنها تقحمنا على الفور في سلسلة من المواقف ـ المفارقات تثير دهشة القارىء الذي لا يدري بالنتيجة ما الغرض منها . فابواب القصر مفتوحة ليلا نهارا ولا يوجد فيه فعلا سوى ابنة منصور الحامد العزلاء من كل سلاح ، ومع ذلك فمن يدخل القصر بدون اذن صاحبه يموت لتوه . ومن ثم فان الاقطاعي ـ منصور الحامد ـ اياه ـ هو الذي درب الفلاحين وقادهم الى الحرب في فلسطين ضد اليهود الغزاة عام ١٩٤٨ ، كما ترأسهم في حروب تحريرية اخرى ، فعلام اسقطهم بعدها من حسابه ليثوروا عليه بزعامة سعد الدين صديقه ورفيقه في السلاح ؟ وعلام هجر زوجه اثر ولادتها عمارا ابنه ؟ علام تركها تعيش متشردة ليعيش وحده في عزلة كاملة ؟ علام عندما صار ابنه شابا استدعاه ليورثه كافة املاكه ، وعند وصول الابن اختفى الاب ؟ نحن لا نعرفه لا في

(١) من المؤسف ان الناشر نسي الحل الصحيح للمشكلة وهي نشر المسودات الثلاث الواحدة تلو الاخرى تاركا للدارس امر التعليق .

اول المسرحية ولا في آخرها الا بصوته الذي لا يكف عن التلميح في كلام شعري يتناوب مع كلام زوجه دون ما هدف واضح ...

قد يظن القارىء للوهلة الاولى ان المسرحية قصة رمزية تقول بكلام غير مباشر مالا يستطيع المؤلف التصريح به . وهذا خطأ . وليست ايضا مسرحية شعرية فمن العسير جدا التأليف بين الحركة الدرامية والشعر الغنائي او الشعر الملحمي . كما ان الغرض من الاصوات ليس بالدرجة الاولى سرد قصة منصور الحامد واهله او رسم الملامح الكبرى لخلق الاقطاعي اللغزي وشخصيته . انها في الحقيقة ، مجمع اسئلة يطرحها صدقي على ذاته علنا لاعتقاده انها اسئلة كل الناس . ومنصور الحامد هو الانسان كما يود ان يكون : « كل شيء او لا شيء (٥ — ١٩٢) » الا يصير اسير عاداته فيكرر ذاته » . (٥ — ١٧٨) ان يسيطر ولا يسيطر عليه، الايقتحم الغير — ولو كان زوجه واولاده — عالمه الخاص ....

وتمتد الاسئلة فتنتقل من الطبيعة الى ما بعدها ، كما اشرت الى ذلك : كيف يمكن للمرء ان يكون والا يكون ؟ اهي الطبيعة بعد من ابعاد ما بعدها ام العكس ؟ الانسان مشدود الى ما بعد الطبيعة بدون شك (قصة الولد الذي قيل له ان اباه الميت ذهب مع العاصفة فالقى بنفسه في العاصفة يوما كي ينضم اليه ٥ — ١٩٩) . ومع ذلك يؤثر ان يبقى في الطبيعة . افتكون قصة ما بعد الطبيعة حلما او اسطورة ، ام انها تشير الى واقع ما ؟ هل يموت الانسان حقا ام انه ينتقل من عالم الى آخر ؟ من كان في البدء ؟ ما البدء ؟ . فعمار يقول عن ابيه : « انه ابي مادام هو الذي كان في البدء ، وهو الذي سوف يبقى ... يصنع موت الاخرين ولا يموت ... بل يتوارى كالشمس الغاربة يعود » (٥ — ١٩٨) .

كان صدقي يعرف ان الاسئلة هذه لا جواب عنها . ومع ذلك ما برح الانسان يطرحها منذ ان وجد . يطرحها ويجيب ويختلف الناس حول

الجواب . والسؤال والجواب عنه ، ونقض الجواب وصياغة السؤال والجواب باشكال اخرى ... هي مغامرة الفكر في الوجود تنشئه .

وإن الفكر الا الانشاء هذا الذي لا ينتهي والذي هو مغامرة الانسان ورهانــه .

الفكر فعل مجاني

اتساءل بعد هذا التحليل الطويل ــ نسبيا ــ ما اذا كنت قد اجبت عن السؤال الذي طلب مني ان اجيب عنه وهو (فكر صدقي اسماعيل) او (صدقي مفكرا) كما اذا كنت قد اجبت عن السؤال المسبق الذي طرحته ضمنا ثم صراحة : ما الفكر في الادب ؟ ... وفي الفلسفة ، السياسة ، الاقتصاد ... ما الفكر ؟

اتساءل ايضا عن نوع الكلام الذي قلته : أهو تلخيص لقضايا اجتماعية او سياسية او ثقافية ... طرحها صدقي او اثارها ، ام شرح لها ام تفسير ؟

انه هذا كله وربما شيء آخر .

فالتلخيص ، اية كانت دقته ، يزيل عن النص رونقه ، وقد يشوهه ، والشرح يحوله الى مفاهيم مترابطة منطقيا فيسطحه وقد يخنقه . والتفسير يفصل فيه المعنى عن التعبير الذي يجسده وكانه يفصل فيه الروح عن الجسد . وفي كل الاحوال فان هذا النوع من الدراسات يفقد الاصل سحره ، حرارته ، حياته .

ومن ثم فقد قلت عن صدقي ان نصوصه ، سواء منها التحليلية او الادبية ، عينات اقتطفها من هنا وهناك ، فما الناظم بينهما ؟

انــه الفكــر ...

الا ان الفكر ليس مجموعة قضايا اجتماعية او سياسية، سيكيولوجية او تاريخية وحسب ... قد تعني الكاتب قضايا كهذه فهي حاضرة في سلوكه . وقد تكون له مواقف صلبة من سياسة جماعته . الا ان حضور قضاياه ومواقفه في كتاباته شيء آخر ، تشعر به ، تعيشه ... ولكنك تعجز عن تحديده .

ان حضور الفكر في النص ــ ايا كان نوعه ــ شعري . فالفكر ــ حتى ولو كان علميا ــ غير الافكار ، ... واياها . اذ بها يتحقق وبدونها لا يوجد . الا ان فيه فائضا عنها هو الفكر اياه ...

قلت : ان تفكر معناه ان تسائل ، وتتوقع الجواب .. وانت تعرف ، تشعر انك لن تحصل عليه . فكل جواب محطة على درب الفكر .

ان الفكر سؤال معلق ،
وفعل مؤجل .

وهو يخيب ظنك اذا توقعت منه اية نتيجة مباشرة ملموسة ، فالاعلانات الادبية لا يبقى منها سوى مفعولها . اما نصها فيتوارى غب ظهوره ، يحفظ وثيقة في الارشيف ، فلو تمكن افلاطون من تحقيق مدينته لغير فاضلة لتوارت وكان صاحبها في عداد السياسيين المغمورين . ولو حققها في الواقع لما كتبها ؟ ولكنا خسرنا آية من آيات البيان الانساني . الفكر في نقطة انطلاق الثقافة . والثقافة رصيد لا عملة متداولة .

الفكر رؤية ، كما قلت ايضا . وهذه فسحتها . والفسحة طولها وعرضها ، عمقها وارتفاعها ان جاز التعبير . الرؤية ليست عملا تحليليا ، ولا هي منافية للتحليل او للعقل . انها في أساس كل تحليل وكل أدب . وهي تحصل من اتصالك المستمر بعالمك وفور اتصالك ، فترسم لك نهجا في الحياة واسلوبا في الكلام وموقفا من الموجودات اناسا وأشياء .

انها مقياس شاعريتك ، شخصيتك والدليل اليها . تتناسب مع موهبتك فاذا تجاوزتها كنت كدون كيشوت اضحك الناس لان وسائله لم تكن بمستوى طموحاته ، وما اكثر من هم على شاكلته في هذا البلد الطيب ، وما اكثر نماذجهم !

قد يتساءل القارىء : اذا علام هذه الدراسة الطويلة – نسبيا مرة اخرى – عن فكر صدقي وعن الفكر اذا كان الفكر لا يجيب لا عن ذاته ولا عن الاخير؟ علام الدراسة عن ... ؟ ولكن كل دراسة هي عن شيء ما . وكل نص ، شعريا كان ام سياسيا ام فلسفيا ، عن موجود ما نعتبره نصا . فصدقي نص والامة كذلك . الثورة نص والشريط السينمائي كذلك ، والنصوص وجدت لتقرأ .

فالدراسة قراءة .

والقراءة ليست كما قلت تلخيصا ولا شرحا أو تفسيرا . انها حوار ، حوار مع القارىء ومع النص .

والحوار ليس نقاشا ، ليس جلسة عمل تساوم فيها على شيء ما لتصل الى اجراء او نتيجة ما .

انها لقاء حر ، مجاني .

وما دمنا أحياء فنحن نحاور من نعتقد انهم احياء مثلنا .

وكان صدقي الذي اعرفه مجانية كله .. وعطاء . او ليست الكلمة الاخيرة في نص مسرحية عمار المنشور دعوة الى المحبة ؟ !

كلمات اخيرة

هل نحن في مرحلة صعود ام ان مرحلة التردي والانحسار ما تزال مستمرة ؟ هل الطريق التي رسمنا بين الاربعينات والخمسينات ، وهي حصيلة قرن ونيف من الفعالية السياسية والاجتماعية والثقافية ، كانت

حلما ام حقيقة ؟ واذا كانت حقيقة فهل اضعناها ام انها تمر بفترة كمون ؟ لقد تحققت انجازات كثيرة في كافة المجالات . فالثقافة انتشرت على نطاق واسع ، ارتفع مستوى الحياة الفردية والجماعية ، صار لنا صوت يسمع في المحافل الدولية ، واحيانا ارادة تفرض ... ولكن هل يدل هذا على انا تجاوزنا حقا مرحلة الانحسار ام ان المرحلة التاريخية اعطتنا ما تعطيه ، او يمكن ان تعطيه لاية مجموعة انسانية اخرى تطلبه ؟ ما الصعود ؟ ما الهبوط ؟ ما القومي والانساني وما علاقة كل منهما بالآخر ؟ ...

... واسئلة الفكر لا تنتهي يفرضها الواقع عليه وكانه يتحداه .

الامر الذي لا شك فيه هو ان طريقنا ، نحن العرب ، الى ذاتنا والى عالمنا صارت اشكالية ـ وما تزال ـ بعيد الستينات .

والاشكالية محك الفكر ، حيث امتحانه ومحنته : اما ان ينهزم فينكفىء على الماضي ، أقصد المواقع الجاهزة ، او يتقدم فيواجه القضية المستعصية .

لقد كان حكمي قاسيا على الفكر العربي . ولكن اما يزال هذا الفكر حتى اليوم يعيد ويكرر ـ قل : يجتر ـ مقولات وبرهنات جيل الاربعينات ـ الخمسينات وكأن التاريخ وقف عندها ؟ انه بهذا المعنى رجعي ولو ادعى التقدمية . فما بالك بالذي يعيدنا قرونا الى الوراء ؟! والادهى ادعاؤنا في الحالتين اننا ننطق بالقول الحق .

فلنتعلم من صديقنا الراحل فن التواضع والنزاهة . لقد ادرك صدقي بعيد الستينات ،انا باشرنا منعطفا جديدا في تاريخنا المعاصر . فما علينا الا ان نشق طريقا اخرى الى الواقع الاخر . ويبدأ عندها صدقي بنقد محكم ودقيق للحاضر ، من المؤسف انه رحل وهو بعد في بداياته .

لم يكن الرجل مفكرا بالمعنى المألوف للكلمة . لم يدع شيئا من ذلك . لم يدع أي شيء . الا ان نظرته الجريئة والبريئة الى الواقع العربي مكنته من رؤيته عاريا ، في عظمته وفي بؤسه ، عندما ارتفع الى أعلى عليين وعندما صار في الدرك الاسفل ، والرؤية الشاملة في بداية كل فكر .

قلت انه اقتصر من الواقع على عينات . الا انه كثيرا ما احسن اختيارها . ثم انه نوعها — من الجاهلية الى اليوم — وعددها فشملت اهم نماذج الانسان العربي المعاصر (الاقطاعي والبرجوازي ، الغني والفقير ، الطالب والمدرس ، الخ ...) وعدد المفاهيم التي تمفصلها (القدر والشر والنّدم ... او العصيان والعطب ، النضال والتمرد ...) ونوع التعارضات الكبرى التي تتارجح بينها (الحرية والقدر ، الحب والموت ، الثورة والاستسلام) ووضع شخوصه في مواقف حدية (أسعد الوراق ، سلمون ، سها عبد المجيد ، الخ ...) كاشفة عند ردود فعل النفس الانسانية بما هي كذلك ؛ لا بل انه بدأ بسبر جوانب مما بعد الطبيعة في صلتها بالطبيعة ... بحيث نجد في تاليفه العناصر اللازمة لانشاء رؤية كاملة للوضع العربي ، ما ضيا وحاضرا .. ومستقبلا ، مركزة حول مفهوم الحرية : واقعه المتأصل في تاريخنا ، فقدانه ومحاولات استعادته ؛ رؤية نأسف حقا لان صاحبها رحل وهي في بداية تكونها ؟

ويزيد في اسانا انا قلما نقع عند أدبائنا على محاولات بهذه الجدية لجعل الادب العربي يفكر .

صدقي: العبارة والحياة

د. وهيب غانم

عندما طلب الي ان اتحدث عن صدقي ، لفني القلق والحزن ... لفني القلق ، لان عوامل كثيرة ، كانت تميل بي الى الاعتذار ، ابرزها اعتياد الصمت ، واقلها الخوف من الهيات الصيف ، بينما تدفعني الى القبول مشاعر التقدير والحب وهي التي انتصرت اخيرا ، فأي انسان يطاوعه قلبه ان يعصى نداء الحب؟.

ولفني الحزن لان المناسبة ، مهرجان ذكرى ، وكم هو عسير ان نتحدث عن الاحباب وكانهم سروا ...

كنت التقي بصدقي .. على الشفاه ابتسامة ود ، وعلى الوجوه فرحة لقيا ، وها نحن نلتقي اليوم ، في العين أسى ، وفي القلب حرقه ، واخلد منهما واقوى اعجاب لا ينقضي بالعبقرية الانيسة .

يحق للكثيرين ان يعتقدوا ،انني عندما اتحدث عن الراحل الباقي ، لن احتاج الى قراءته من جديد ، فقد كانت حياتنا مشتركة في الجملة والتفاصيل .

عشنا معا ، ايام العوز والمرض ، وتعاونا عام ١٩٤٧ مع مجموعة من الانداد ، في السعي الشاق الى ترسيخ مبادىء القومية والديمقراطية والاشتراكية وتابعنا رفقتنا على الدرب حتى النهاية ، وظل صفو الوداد ابدا سلوانا ودرعنا الواقية ....

كنت اذهب الى دمشق لاتمتع بعبق التاريخ ، وبرؤية صدقي ورفاقه ، وكان صدقي ياتي الى اللاذقية ليتمتع بسحر البحر ، ويأنس باترابه .

خلال جميع مراحل العمر ، كنت اواكب تطوره الفكري ونموه السريع . استمع الى هواجسه ، وادهش لرؤاه . يسحرني اشعاع الذكاء والعمق ، في لهوه وفي جده ، ورغما عن مشاغلي اليومية ، كنت ارد احيانا على تكر ذاته في مجلة الكلب ، وسيلة لابداء اعجابي بها ، وتشجيعا على استمرارها ...

ولكن كل هذا ، بدلا من أن يحرمني متعة العودة الى مؤلفاته ، ضاعف اغرائي بها ... ان بعض الكتب كقصة الحب الاولى ، لا يمل من تردادها الاحباب

والموضوع الذي اعرضه امامكم تحت عنوان : العبارة والحياة ، انما اوحى به اطلاعي الحديث على انتاج صدقي ، وكل ما آمله هو أن

استطيع من خلاله بيان التلازم الحي الجميل بين ما عاش وبين ما كتب ، بين ادبه وبين حياتــه .

ايها الاخوات والاخــوة :

ملايين الســنين مرت على صمت هذا الكون ورتابته ، الى ان لاحت لحظة الابداع الخارقة وبين اعداد من الجسيمات ، تمتنع على اي خيال ، تمردت على السواسية بضع ذرات ذكية واختارت لنفسها وجودها المتميز . . . تعضمت المادة واصبحت كائنا حيا .

لم تعد تكتفي بالتحرك الآلي ، بل راحت تتأثر وتؤثر ، تتكيف وتكيف تتجدد وتجدد تسرب الى كيانها الزمن ، ضبابيا مضمرا ، أصبح لها مواسم ومواقيت ، واجمالا صارت لها بنيتها المستقلة ، ومنذ ذلك الحين لم تتوقف عن تبني مصيرها ، لم تتوقف عن الصيرورة الصاعدة .

تحلت الى جانب الحركة بالاحساس ، حفاظا على وجودها البريء وعلى صلتها الوثيقة بالكون الذي انبثقت منه ، واصبحت طليعته المتميزة ، تأخذ بالحس انباءه وآثار طاقاته وتعطي بالحركة ردودها وانبلها ، تغنى به وتغنيه ، تحيا به ، وتزينه بمظاهر الحياة .

زقزقت العصافير ، رقصت النحلة ، ورفت الفراشات ، وفي حلزها ولعبها دائما الصلة الوثيقة بين مشاعرها وبين بوادرها ، بين احاسيسها وبين حركاتها ، ولاحت منذ ذلك الحين اولى تباشير الفن والادب ، فعلى الرغم من ان المشاعر ظلت مرحلة طويلة وعلى امتداد ملايين السنين محدودة ، وظلت معها البوادر محدودة مثلهـا ، تكاد العبارة تسوازي الاحساس ، او تبدو لصقا به فان افتراقا ما ظل متواصلا ، مفسحة ما تردم ، ظلت ماثلة بين الشعور وبين اي تعبير عنــه .

على ان المادة الحية ، واصلت تقدمها ، وتجاوزت هذه المرحلة عندما حققت انتصارها الكوني الحاسم وتحلت بالوعي ، فمنحها هـذا الامتياز الرفيع ، كنزا أغلى من اي ثمن : أن تدرك ، تختزن ، وتختار ما تعتقده اكثر غنى واكثر جدوى ، كما القى عليها ، في نفس الوقت عبئا لا يحمله سواها : تحمل المسؤولية في هذا الاختيار ، ومعاناة جميع نتائجه : فشلا او نجاحا ، سعادة او شقاء .

ما كاد الوعي يشرق على الدنيا متوجا بذلك التطور الصاعد للمادة الحية ، حتى وضع الكائن الجديد المتحلي به : الانسـان ، امام نعمـة الفهم والتميز وامام مسؤولية الحرية والابداع .

لم يخلق هذا الوعي مستحضرا جاهزا ومنتهيا ، بل اتى قابلية وليدة ، تنمو وتتعاظم . بمقدار ما يتيسر لها من كد وتجاوب ومعاناة ، تنوس حتى تصبح وكانها غير موجودة ، وتتقد حتى لتبدو وكانها شمس منيرة ، تنمو وتتفتح مع نمو اصحابها وتفتحهم ، وتضمر وتنطوي مـع ضمورهم وضواهم ، ولما كان نكسها في الافراد شيئا يستحق الاهمال ، فان تطورها خلال المجموعات الانسانية يمضي في خط تصاعدي ، والى جانبه يتوهج تاريخ العلاقة بين الحياة وبوادرهـا ، بين المشـاعر وتعابيرها ، حتى لنستطيع القول : ان تاريخ الادب والفن ، هو تاريخ الحياة نفسها ...

في البدء كان الانسان قليل العدد ، قليل التجارب ، محدود الوراثات واهم من كل هذا ، محدود الانتاج ووسائله ، ضعيف النفوذ في نسيج القدر ، كانت حياته محدودة فجاءت تعابيره محدودة مثلها . الى حين من الدهر فصل فيه الانسان تعابيره على قد جغرافيته الضيقة وتاريخه القصير ، ووعيه الوليد ، واحاسيسه العفوية ، وحتى الألوهة تقمصت خلاله اشكالا ضئيلة منتهية : طيرا ، حيوانا كوكبا ما ، وفي أحسن الاحوال انسانا مـا .

ولكن العدد تزايد ، والتاريخ امتد ، الجغرافيا اتسعت ، تمازجت الوراثات ، نما الانتاج وتعددت وسائله ، وفي يوم من الايام السعيدة ابدع الانسان اروع ، واغنى وسائل تعبيره ، فالى جانب الحركة واللون والخط والنغم ، والصوت ، ابدع اللغة ، ومعها رمزها المرئي الخالد : الحرف ، فانداحت امامه محيطات من الوان التعبير ، وراحت تسلسل حكاية العبارة والحياة ، بل ديمومتها ولا نهائيتها .

تعاظم نفوذ الانسان على الطبيعة ، ازدحمت تجاربه ، غنيت حياته واكتظت بالاحاسيس والمفاهيم . لم يعد الاله معرضا لان يمسخ شيئا ، او حيوانا ، او كوكبا ، او انسانا ما اصبح التعبير عنه يقتضي اسمى المعارف واوسع المفاهيم وانبل المشاعر ، واغزر الفنون والآداب ، وخلال ابدية من الزمن .

لم يعد بامكان الحياة ان تستنفدها بوادر محدودة وانما اصبحت تتطلب تنوعا وتصاعدا في التعابير لا حدود لها ، عمقا وامتدادا .

قرات مرة لشاعر مطلع معلقته : هل غادر الشعراء من متردم فهمست بمرح وود : يا عنترة

هاقد مر على قولك اربعة عشر قرنا ، تعاقب خلالها مئات الالوف من الفنانين والشعراء والكتاب من جميع الشعوب ، وما زلنا نتساءل :

كم هو نذر ويسير ما قاله الانسان حتى اليوم ؟ بل اية آفاق لا تحد تنتظر الادب والفن ، على طريق الحياة : آفاق يزداد اتساعها بازدياد عمر الانسانية التي ما تزال في طفولتها ، وبازدياد التقدم الانساني الذي مازال مبتدئا رغم خطاه المتسارعة .. آفاق يغنيها القول بدلا من ان ينضبها ، وتدعوه الى المزيد بدلا من ان تقيده ... ليتك بيننا الآن ياشاعر الماضي اذا لشاركتنا التساؤل وتجاوزتنا في العمل .

ان مالرمي الى توكيده في هذا الحوار ، هو ان الزاوية التي لا تكاد نلحظها في البدء بين ذراعي العبارة والحياة ، تواصل اتساعها ، دون ان يمس ذلك جوهر بنيتهما : وهو :

١ ــ التلازم الذي لا ينفصم بينهما (اي بين الحياة وعبارتها) ، والذي بدونه تضمر الاولى وتتجوف الثانية .

٢ ــ الفسحة التي تمضي متنامية بينهما والتي بدونها يتوقف التقدم وتمتنع الحرية . على العبارة بما هي فعالية موضوعية ، ان تظل البناء الانامي (اي المحسوس من الآخرين) الذي يعبر عن وجودنا ، يحققه من جهة ، ويمنحه حظه من الامتداد والبقاء في وجود الآخرين من جهة ثانية . انها في جميع احوالها الطبيعية والسليمة : تحقيق وغنى لحياتنا ، وفي خطوة اكثر تقدما ، صبوة الى مايمكن من اغناء الآخرين ومن نعمة الخلود في بنيانهم . فاية مهمة يمكن ان تكون اسمى ؟ وفي نفس الوقت اية مسؤولية كبرى يلقيها على عاتقنا قدرنا الانساني ؟ بل اي خطر يواجه الانسان وأخلاقيته ، اذا انحرفت العبارة عن مهمتها او انصرفت عامدة عنها ، اذا اصبح الاديب مرائيا او مرتزقا ؟ اي خطر ، يواجه الاندفاع الانساني نحو التكامل والسمو اذا انفصلت البوادر عن المشاعر ، وبدلا من ان يكون الفن والادب والفكر تحقيقا لحياة لايعد لها ثمن ، وتعبيرا خصبا عنها ، ومرقاة لها نحو مثلها نجدها وقد اصبحت سلعا تباع وتشرى ، او طاقات في خدمة الاهداف المادية للانسان او في خدمة الطغاة المعادين للحياة .

ان الشعور والفكر والرؤى + المحتوى الانساني وحده ، هو الذي يعطي العبارة قيمتها ، فتعطيه بدورها تحققه وديمومته : دوره في التطور الصاعد حظه من الخلود ، وذلك عندما تنقله من عابر في حياة فرد الى باق في حياة شعب وعلى قدر عمقه وغناه ، في حياة البشرية .

وما الادب والفن والفكر وجميع معالم المدنية والعمران الا صور انامية لمشاعر مرت ، حروف متضافرة تعبر عن مضمون واحد : حياة منشئيها.

هل نجد فيها الغث والسمين ، الزائف والاصيل ، البهلوانية والعبقرية ، التصميم على صنع القدر والانهزام أمام أصغر العقبات ، الارتزاق حتى الهوان ، والامانة حتى الاستشهاد ؟ لا عجب فهي في كل الاحوال ترسم وقائع الحياة الانسانية . . .

يقف بعضهم عند ميوله الصغيرة، فاذا هم فيمعسكر التراجع والانحلال، ويتمسك آخرون بميولهم العالية ، فاذا هم على درب العدالة والسمو الانساني . . . .

يتحدث كثيرون وخاصة في هذه الايام ، عن الحرية والالتزام وكأنهما شيئان متناقضان او متباينان ولكن هل ثمة حرية بدون التزام ؟ . . . .

ان الاديب ليس فردا معزولا في صحراء ، وانما هو ظاهرة في شعب. والحرية ليست تهويما في فراغ وانما هي اصطفاء دائم ومزدوج الفعالية : اصطفاء بين ميول عديدة ، يمضي الانسان الى تحقيق واحد منها في لحظة معينة ويلتزم به مبعدا ما تبقى ، واصطفاء أيضا بين صور لاتحصى لهذا الميل ، يختار الانسان واحدة منها ويلتزم بها ، مبعدا ما تبقى وفي هذا الاصطفاء ، يعيش حريته ، ويحقق انسانيته ، يكتب على مدى العمر تاريخه ، ينسج شخصيته ويسهم في صنع قدره .

نشعر بالحرية عندما نختار دربنا بأنفسنا ، وعلى قدر وعينا وثقافتنا وتجاربنا ، ونفتقدها عندما يفرض علينا الدرب أية قوة خارجية وعلى غير رضا او اقتناع منا . نشعر بالحرية ، لا عندما يختفي الارتباط ، وينعدم الاتجاه ، وانما عندما نلتزم بما نراه نحن أجدى وأسمى . صحيح ان ما كنا نشعر لحظة اختياره أننا أحرار ، ما يلبث بعد ان نمضي باتجاهه

حتى يصبح قدرا الا انه يصبح قدرا محببا ، جزءا انيسا من كياننا ، عنصرا في صيرورتنا ، وما نشعر لحظة اختياره انه مفروض علينا ، مسربل بالقهر والازلال ، يصبح ايضا بعد المضي باتجاهه قدرا الا انه يصبح قدرا بغيضا ، اجنبيا عنا ، نكافح مدى الحياة للتخلص من آثاره ، من عاره واذاه ...

ان الالتزام الذي نراه جوهرا للحرية ، وتحقيقا وحيدا لها ، تنتفي عنه كل صفات الحرية والاصالة اذا اصبح الزاما او رياء او ارتزاقا اذا فرض علينا او اصطنعناه او رمينا من خلاله الى اي هدف سواه .....

الاختيار الحر ، الالتزام الحر ... بكل مايعنيه من صدق في السلوك والتعبير هو انسانيتنا ومسارها ماعداه هزيمة او نخاسة .

على أضواء ما تقدم احببت ان اتحدث عن صدقي اسماعيل ، فنعيش معا لحظات وجيزة في رحاب الصدق والحرية ، الشرطين الرئيسيين لكل فن انساني رفيع وحي ، ثم نواصل المضي بعد ذلك الى الآفاق التي استطاعت موهبته ان تحلق فيها ، فلولا الذرى التي بلغها المبدعون ، ماوعتهم الذاكرة الا قليلا ...

في حي العفان ، في بيوته الكئيبة وازقته الضيقة عشنا وعاش صدقي ... كنا نهرع الى بيوتنا عندما نلمح جنود الغزاة ، خوفا من ان ياكلنا عسكر السنغال كما يقول اهلونا . وترعرعنا ، فالبؤس شامل والفقر اشمل ، والتخلف راسخ كالجبال .. حصيلة قرون من التراجع الحضاري .

نفر قليل كانوا يعيشون في بحبوحة ... يتعاونون ويتآمرون مع المحتل ... قذى يطفو على صفحة يم ساكن ، ماأسرع ماتطيح به امواجه الآتية .

تعلمنا منذ نعومة الاظفار ان الدرب الى محو الطغاة هو ان تقفز الدنيا من الخانعين ، وان الدرب الى الكرامة ، هو أن تشتري الشعوب حريتها بأغلى الاثمان ، وان تعض على حقوقها بالنوجذ ... فعزمنا على انلانحني الهام .

وسار صدقي اليافع مع اترابه اليافعين الى جانب الجماهير المناضلة من اجل الحرية واختصته الصدف برصاصة ، كانت ارق عليه من مطلقيها ، كلفته تدخلا جراحيا دون ان تقضي على حياته ، وعندما انضم الى رفاقه في دمشق ، لم يكونوا مهاجرين غادروا الديار ، بل مناضلين ، قضيتهم واضحة كشمس بلادهم : كي تصبح كل القيم الانسانية ممكنة وحقيقية ، ولا بد من ان تتحرر الامم من مستعبديها في الخارج ، ومن كل مظاهر التخلف والاستغلال في الداخل ، والمعادلة تنصب بشكل اشد الحاحا على المثقفين ، اولئك الذين يفرض عليهم وعيهم ـ شاؤوا ام ابوا ـ الخيار الحاسم : ان يختاروا درب شعوبهم فيسهموا في بناء صرح الحياة المتسامي ، او ان يهربوا من مسؤوليتهم فيعرضوا ثقافتهم وكفاءاتهم ، سلعا في مزاد المستغلين والمستعمرين : أعداء الشعوب والانسانية .

ولم يتردد صدقي ... منذ الطفولة ، سار مع جيله الى جانب الشعب ضد الاحتلال وترعرع فكان عضوا في اقرار مبادئه النهائية عام ١٩٤٧ ، وكان الامر بالنسبة له ، تواصلا مع قصة الطفولة والشباب ... وظل امينا على اختياره حتى النهاية . لقد كانت النتيجة المحتومة لصدقه مع نفسه ، أن يكون صادقا مع شعبه ، ولما كانت له موهبة أديب وفنان فقد فرضت عليه بنيته مهمة مزدوجة ... موقفا أصيلا : ان يضيء للآخرين وأن يسهم معهم ... ان يزرع حتى النهاية درب الادب ودرب النضال .

عرف ان الذين يدركون أولا ، لابد لهم من ان يأخذوا بيد شعوبهم الى الادراك ... فالطليعة الحية والحقيقية ليست نشازا بقعية ، وانما هي بداية موسم ، ويشمل هذا جمع مظاهر الحياة الانسانية ...

ولقد مضى في أدبه يعبر عن هذه الحقيقة حتى لنستطيع ان نتبين في مجموعة آثاره ، ملحمة هذا الشعب بكل ما فيها من هموم وانتكاسات وأشواق ، الا اننا نجد فيها أيضا كل ما استطاع ان يضعه من شموع في حنايا هذه الملحمة .

ترسم الواقع بصدق وامانة ، ولمس جراحه وآلامه ، وعفوناته ، ولكنه ترسم أيضا في هذا الواقع مالدى الشعب من تصميم عنيد على الانتقال الى ما هو أكثر غنى وأكثر سموا .

لم يحاول أن يبني سماء في الخيال ، ولاجمد أمام واقع بغيض ، وانما واجه بكل شجاعة مسؤولية الانسان ... فتلمح دائما — وحتى في احلك ساعات الانحدار والعقم — الجنة التي يجب أن يخلقها هنا الانسان ، بتضحياته غير المحدودة ، من خلال الواقع من خلال شروطه القاسية ، وهكذا تحول بعفوية مطلقة ودون ان يخطط لذلك اي تخطيط الى مناضل. من يعرف صدقي جيدا لا يدهشه كيف يحمل غصن الزيتون مضاء سيف. فالاديب الصادق مع نفسه ، الامين على قيمة وجوده ، لايمكن ان تكون العبارة بالنسبة اليه الا بنت الحياة ... مقدمة للعمل ودعوة اليه .

مثل هذا التسلسل في حديثي كان يملي علي ان اتحدث عن صدقي مناضلا ، كما اتحدث عنه اديبا ، الا انني عثرت في برنامج المهرجان على موضوع عنوانه : صدقي مفكرا ومناضلا ، فعلمت أن الاستاذ انطون مقدسي ، تولى الامر عني ... فراعى بذلك ، ودون ان يدري ، سمادير عيني ، وسمادير حياتي ... ولعل هذه هي الاشق والاشقى .

كان صدقي واحدا من جيل الثورة ... الجيل الذي لم يكتف برفض الواقع كشيء لاانساني ولم يكتف بأن يضع اللافتات أمام السائرين ، وانما سار معهم ، بل وفي مقدمتهم يكافح مدى الحياة لتغيير هذا الواقع قولا وعملا .

لم يبالي في مسيرته النضالية صديقا ، ولا ظلم عدو ، لافكر فيثواب، ولا خشي عقابا ، وعندما دعته الظروف الى تولي مراكز سياسية او ثقافية او ادبية ، مضى اليها ـ خلال جميع الشروط المعقدة شاعرا بكل مسؤوليتها ، حاملا معه قناعاته ، مؤمنا بأنها تستحق كل مشقاتالنضال معتبرا ان المناصب والالقاب هي كالسجن والاعتقال ، اشياء عابرة تفرضها الظروف ، ولكنها تظل دائما ـ بحلوها ومرها ـ مناسبات لتحقيق نقلة ـ مهما تكن متواضعة ـ نحو بناء العالم الجديد الذي يصبو اليه .

ظل صادقا مع نفسه وامته في النضال كما في الكتابة ووشى هـذا الطابع حياته وجميع جوانب ادبه ، ولكن هل توقف عند هذ االحد ؟.

من يتابع مؤلفاته ويتنقل بين عناوينها ونصوصها يدرك الى اي حد، يبرز التلازم في نظره بين مصلحة شعبه ومصلحة الانسانية جمعاء . . .

ان الذين يعرفون كيف يحبون انفسهم لابد ان يحبوا شعبهم والذين يحبون شعبهم لابد ان يحبوا الانسانية جمعاء . . . تواصل عفوي وراسخ لايمكن ان يناله تشويش او غموض الا ان يتدخل الرياء او الانحدار .

في بحوثه وترجماته ومواضيع نثره ، لم يقتصر صدقي على ادباء شعبه ومفكريه فحسب وانما تابع انجازات الادباء والفلاسفة والفنانين منشعوب كثيرة ، وعلى قدر ما سمح له بذلك وقته وامكاناته . لقد اخذت الرؤية الثاقبة بيده الى ادراك التواصل الانساني ، عاطفة وابداعا ،نصراوانتكاسا، سموا وتفككا .

في مقالاته المتكاملة حول النقد والمؤتمرات الادبية ، القومية والعالمية ، تلمح بوضوح الانسياب العفوي ، والتلازم بين الشعوب ، ونحس باحتوائه الاصيل لهذا الانسياب وهذا التلازم . .

تحدث عن التراث والمعاصرة ، عن التقاليد والحداثة ، عن الرعاية والوصاية ، عن اللغة والموهبة وفي كل ماكتب ، نشعر بانه يضيء لشعبه ،

ولكن عندما تترجم كتبه الى اية لغة اجنبية ، سيجد الآخرون انها تضيء لهم جميعا ، فالادب الحي النابع من الصميم ، لاتقف في طريقه الى الشعب اية عوائق ، ولا يقف في طريقه الى الانسانية اية حدود او مراسم .

في جميع ماكتب لانجد جملة لايؤمن بها ، او لايقتنع بجدواها او فكرة لاتنبع من صميمه الحي الواعي . قليل من كتبه نشر في حياته واكثرها بعد المغيب ، ولو امكن ضبط التسلسل فيما كتب لراينا ادبه ينمو مع نموه ، يقلق مع قلقه ، ينوس معه ويشرق معه ، وفي كل احواله يحمل نبض حياته وايقاع عمره . لم يصطنع موضوعا ولم يتكلف تعبيرا ، عاش وعبر عن حياته ، شب ونضج ولم يسجل عليه احد من عارفيه اي تناقض او تباين بين فكره وسلوكه .

لقد دخل محراب الادب وهو يملك مفتاحه الذهبي ، الاصالة ، التلازم الوثيق بين العبارة والحياة . . .

ولعلكم تتساءلون الآن ، بل من حقكم أن تتساءلوا . . . وماذا بعد ؟.

هل يكفي لتحقيق الرسالة ان نجتاز العتبة ؟

لايخطرن على بال انني نسيت الآفاق : ان البطاقة التي تخولنا دخول الحلبة ، لاتملك لنا اية ضمانة للسبق ، فهذا التميز العبقري ، انما يتوقف على اثمان جسيمة ومتواصلة

يتحدث بعضهم عن الموهبة ونحن جميعا نؤمن بها ، فالذين لايملكونها لن يصبحوا ادباء ، الا ان مالكيها لايصبحون ايضا بالضرورة ادباء حتى ولو سلكوا الدرب الامثل : درب الصدق ذلك ان تكامل خطواتهم انما يتوقف على توفير كل ماتحتاجه اية عبقرية كي تتحقق : الجد والملاءة . فهل قدم صدقي الجهد والعمر ، وواصل التعلم والاطلاع ؟.

منذ القدم ، يعاني الادب الرفيع عواقب صدقه واصالته . فاللافتتة

التي يواجهه بها الحاكمون في كل بلد وعلى مر العصور لاتتغير : معنا ، في خدمتنا ، او بجوع صاحبك ، وقائمة الشهداء طويلة حالكة السواد ...

اغلب الصادقين من الادباء ، يكتبون بعد أن يقوموا بالاعمال اليومية التي تؤمن العيش لهم ولعائلاتهم ثم تأتي حصة الزوجة والاطفال والزائرين، واذا اضفنا الى كل ذلك الساعات التي يعطيها المناضلون للقضايا العامة ، فما الذي يبقى من الزمن أو من الشهية للكتابة ؟. وخاصة لدى الذين يعرفون كل قيمتها .

وصدقي .واحد من نماذج الادب المضطهد ... كان محالا عليه ان يعيش من التأليف فاضطر الى البقاء موظفا : ان يحضر دروسه وان يلقيها ، كما كان عليه أن يقوم بواجباته الحزبية ، وان يغدق على زوجته وطفليه كل مايحتاجونه من وقت ورعاية ، وان يستقبل زواره من كل نوع ، وبعد هذا كله ان ينصرف الى الكتابة ، وغالبا مايكون ذلك بعد ان يلف الصمت والنعاس مدينة دمشق الساحرة ، او في لحظات يسرقها بين الواجب والواجب ، هاربا الى مقاهي شعبية ، خلدتها اشعاره الجادة والهازلة ، حيث يخلو الى نرجيلته الشهيرة ، ويمارس هوايته التي تشكل جوهر وجوده : الكتابة .

على ان اعتى من كل ماذكرت ، مالبث ان انضم الى هذا العناء وهذه العقبات .

في احدى زياراتي له ، ولما يبلغ الاربعين ، تحدث بين الجد والمزاح ، بين المرح والقلق ، عن أعراض يشكو منها، قال له الاطباء البلهاء ــ والتعبير له ، وانا طبيب كما تعلمون ــ ان اسبابها تعود الى القلب والى توتر الاعصاب .

كانت لحظة قاتمة تلك التي اصغيت بها الى القلب الوديع فوجدته يعلن عجزه عن الاستمرار امدا طويلا .

قدمت له كل مااستطيع من نصائح ، عل نفس طريقته ـ بين الجد والمزاح ، وبين المرح والقلق ـ وكنت على يقين بانه سياخذ بعضها ، ولكنه لن ياخذها كلها . . .

كان عسيرا عليه أن يتخلى عن واجباته الوظيفية والنضالية والاجتماعية مع كل ماتتطلب من ارهاق . . . وكان عسيرا عليه ان يتخلى عن نرجيلة تواسيه وتوحي اليه ، وعن كأس يتيح له أن يشرب نخب الاصدقاء وبطيل أوقات السمر ، وكلاهما من ألد أعداء صحته المتداعية .

كان من الذين لا يرون العمر تراكم سنين ، وانما لحظات اشراق . .
كتب أكثر مؤلفاته برفقة هذا المرض العضال ، وفي سنواته الأخيرة . . لاخضع لناصحيه ولا دارى قلبه . . . سهر الليالي ، وبذل جهودا لا يستطيعها الاصحاء . . .

كان يشعر في أعماقه باشياء يجب أن تقال ، وانها من حق شعبه عليه ، ومن حق الحياة عليه فلم يتوان في قولها رغما عن العذاب والآلام

كان اديبا يبحث عن عزيز لايعوض . . . عن عبارة تحتوي حياته لا صيادا يلقي شباكه ليبيع ماجناه آخر النهار

لعل الصورة أصبحت كافية لنرى من خلالها كل الجهد الذي قدمه صدقي لادبه ، وكل العمر الذي بذله ، ولنستطيع التحدث اخيرا عن الملاءة التي أتاح له هذا الجهد أن يتحلى بها والتي تتجلى في كتاباته . . .
في أوائل نيسان عام ـ ١٩٤٧ ـ اي قبيل انعقاد المؤتمر التأسيسي للبعث امضينا انا وهو والاستاذ عبد البر عيون السود ، والدكتور عبد المنعم شريف ليلة بكاملها نجوب شوارع دمشق ونحن نتناقش حول مبادىء البعث وصياغتها ، بغية الوصول الى تصور مشترك حولها ، وخاصة حول قضية القومية .

كان همنا الكبير ان تصل القومية الى وعي الجيل، وقد نجت من براثن الفحوص والطوباوية ، ومثالب الرجعية والعنصرية ، ومؤامرات الاقليمية، وبهارج الامية الشكلية .

القينا تحية الصباح الودودة على الكناسين ، وعندما اشرقت شمس دمشق اللطيفة ، كنا رايا واحدا ، وكان فرحنا عظيما باكتساب الدكتور عبد المنعم الى جانبنا ، فقد كان شابا مفعما بالحيوية والثقافة ، والمشاعر الانسانية السامية ، وعندما غيبته المنون ، وهو في زهوة العمر ، وقضى ضحية الواجب وانكار الذات ، فقدنا به انسانا كبيرا وثروة نضالية عالية.

فما اروع الشهب ، وما أحزن مرورها السريع ؟.

كنت وصدقي من مدرسة واحدة ، فانا اعرف سلفا انه سيساندني ، ولكن الذي فاجأني وافرحني ، هو المستوى الرفيع الذي ناقش وتحدث به عن القومية .

لم يكن قد مضى على افتراقنا ثلاث سنوات ، ولم يكن صدقي قد بلغ الثالثة والعشرين من العمر فأية خطى واثقة وجهد لايكل ،كان يمضي الى ينابيع المعرفة ...

امضى بعد ذلك خمسة وعشرين عاما ، لا يمل من متابعة الاطلاع والاستزادة من المعارف .

اي قارىء لمؤلفاته ، قصصه ، أشعاره ، خواطره ، مواضيعه الادبية ، يشعر بالافق الثقافي الرحب الذي تحلق فيه اجنحته الطليقة ، يشعر بالثروة العامرة من التنوع وسعة الاطلاع ، وتسحره الملاءة التي تبرز بوضوح في ثناياه .

لم يسرع في تبني فلسفة معلبة ومحددة ، فيسر له ذلك ان يطوف في حدائق الفكر والادب وأن يختار منها ازاهيره في كل مرحلة .

في رد على احدى قصائده المازحة الي ، ورد بيت في وصفه :

صدقي ومـا صدقي سـوى غصن يرف على الحمائم

ولقد كان فعلا كذلك ... كل صفحة في انتاجه تشعرك انها كلفته قراءة كتاب او اكثر ، وعندما يعرض لك موضوعا نجد انه قد احاط به قوميا وعالميا . يتحدث عن النقد فتنبسط امامك مختلف النظريـات والفلسفات النقدية والجمالية ، وبانسياب عفوي ، تنير واقع الادب ، ومشاكله ، في نفسك وفي وطنك ، وفي الآفاق الانسانية ، يلخص لـك المؤتمرات ، وتتماوج نظرته فيها : فتصلك وكانها عقدت من اجل الازمات الراهنة لشعبك ولادبه القلق ... ليست لديه مواضيع ، او كلمة ، من اجل الزينة او مـن اجل التأمل او اليوغا ... كل حروفه في خدمـة الواقع والحياة ، يفهمهما يحللها ويعيشها ثم يحاول بعد ذلك ، وعلى قدر ما تسمح به اجنحته القوية والامينة ، ان يرقى بها نحو الافضل .

بقي علينا ان نرى أي درب يسلك الينا ... وماهو موقعه مـن الاسلوب ...

لااظن احدا ينتظر مني ان اسمي مدرسة ينتمي اليها . فالفنان الاصيل له مدرسته الخاصة ، اسلوبه المتميز ، الذي لاتحدده الاالكفاءة، والغاية التي يرمي اليها في كل مايبدع .

المدارس والاساليب ، يتعثر بها المبتدئون او الباعة ، اما ذووالمواهب العالية . فنادرا ما يلجأون الى التقليد ، واذا لجأوا فـسرعان ما يتحولون الى الاصالة ، ويشقون طريقهم الخاص .

بصيرتهم الوقادة تهديهم بدون عناء الى كنوز التراث في لسان شعبهم وفي انتاجه كما تهديهم الى كنوز التراث في كل ادب عالمي . يتمثلون بصبر وهدوء ، ثم يلقون بكل ثقلهم في موازين الابداع ، مضيفين الى كنوز

الماضي ، كنوزهم الجديدة ، منضمين الى مسيرة تظل واحدة على تعاقب العصور ، وتنوع الشعوب ، مسيرة الحرية والجمال .

صدقي اذن لاينتمي الى مدرسة ، ولقد تكيف اسلوبه دائما مع غايته من الكتابة .

عندما نذهب الى عرس ، لانرتدي ثياب الحداد ، ولو كانت اجمل واغلى ثيابنا ، وعندما نتجه الى الجماهير ، في قضية مصيرية ، لانتحدث بالالغاز .

عندما تكون لنا لغة ثرية ووطن جميل ، وشعب عريق ، عندما يكون لنا تراث يعج بالكنوز ، لايمكن ان يغرينا اي شعار بتجاهله ، والعودة الى البدء من الصفر ، كما لايمكن ان يصرفنا اي شعار عن اضافة كل رائع وجديد اليه .

في جميع اللغات وفي ظل جميع المدارس ، كتب التاديون تفاهات طواها النسيان ، وكتب العباقرة الافكار العميقة والشعر الجميل والاغاني القومية والانسانية التي احتضنها الخلود . عندما تسحرنا لوحة ، عندما تفرحنا اغنية ، عندما تفجر عواطفنا قصيدة ، وتوقظ اسمى مشاعرنا مسرحية او قصة ، لانعرف كيف أبدعت هذه الاشياء ، ولايخطر ببال عاقل فينا : انه اذا قلد اسلوبها او انضم الى مدرستها ، سيكتب أشياءتضاهيها او تدانيها .

في البدء : العبقرية ، الفكرة العظيمة ، والاهداف السامية ، ثم يأتي سهر الليالي ، والجهد ، والعناء ، ليكون كل حرف وكل كلمة ، لبنة في صرح العبارة المتعالي ، جديرة بالمرامي التي يستهدفها الاديب او الشاعر او الفنان .

عندما ننتخب ملكة للجمال ، تمثل جميع المرشحات تقريبا عاريات ، ولكن بعد فوز الملكة يشتهي كل ذواقة ان يضفي عليها العطر والزينة .

كذلك هو الادب والفن :

اولا المضمون ، ثم يأتي كل مايضمن تجسيده وايصاله الى القراء بما يليق به من روعة ووضوح .

وكل اديب يعطي قيمة لحياته ، لمشاعره ، لابد ان يعطي نفس القيمة للتعبير عنها ولكل مايحتاج اليه هذا التعبير من مقومات .

ان الفصاحة والبلاغة والبيان السمح ، وامتلاك ناصية اللغة ،والريشة والوتر ، والازميل ، ليست ابدا نوافل عارضة ، انها البدن الذي يستطيع وحده أن يعبر أخيرا عن الحياة .

صحيح ان كل بهارج الثياب وترف الزينة ، لايمكن ان تهب الجمال لمن هو محروم منه ، وصحيح ان زهرة على مفرق حسناء تعادل كل لآلىء الهزأجا ، الا ان تلطيخ الجميلة بالادران ، ولفها بالخرق البالية ، قادر ايضا على اخفاء كل معالم الحسن فيها .

على هذا المستوى من تلازم العبارة والحياة اتى انتاج صـدقي . وواصلت مزية الصدق والاصالة فعاليتها في تكوين اسلوبه .

كان يرى في عبارته رسالة ، فتوخى ان تصل الى قلوب الآخريـن وعقولهم بأقصى ما يمكن من يسر واشراق ، واختار اسلوبه على مستوى عال من الوضوح والحرية ، وصب كـل كفاءاته العالية لتحقيق هـذا الاختيـار .

قد يخطر لبعضهم ، ان الافكار الجادة لابد ان تتعرض لشيء مـن الغموض ، وقد يكون في هذا بعض الصحة ، ولكن الاكثر صحة منه، هو ان الذهن المشوش ، لابد أن يتسرب تشوشه الى اكثـر المفاهيم سطحيـة والذهن الواضح لابد ان يتسرب وضوحه حتى الى اكثر الافكار تعقيدا .

البحار تعمق وفي ساعات صفائها ، ترتسم على صفحتها اغوارها السحيقة . وبعمق الانسان ، وتظل ترتسم على وجهه وفي عينيه،طفولته وابعاده الانسانية .

ويغوص الاديب الاصيل في اعماق الحياة ، ويحلق في سماواتها ، وتظل عبارته ، رقراقة شفافة ، تكشف بكل ما تستطيعه من بساطة ووضوح ، عن الاعماق والآفاق .

ذلك هو الاسلوب السهل الممتنع على مر العصور ... سهل على القراء ... ممتنع الا على الموهوبين والنابغين ...

في جميع مواضيع صدقي ، على تنوعها يندر ان تجد جملة تحتاج الى شرح ، او كلمة تلجئك الى معجم .

تصل حروفه الى فكرك وقلبك دون عقبات ، دون اشواك ، منسجما بذلك مع غايته الرفيعة بأن يصل بكامل حقيقته اليك ، لا ان يصطاد اعجابك ، ولا ان يختبىء خلف الغموض والطلاسم تاركا عليك ــ كما يفعل بعض المتأدبين ــ عبء البحث عنه ، وغالبا دون جدوى .

لم يكن لديه ما يخفيه ، بل على العكس كان لديه دائما ما يتلهف على ان يبديه ، وان يطمئن ما امكن الى سلامة وصوله .

يندر ان تجد صفحاته مرهقة بالهوامش ، باستثناء مجلة الكلب ، حيث تشكل الشروح جزءا اساسيا من القصيدة ومن مهمتها .

نصوصه محددة ، مشرقة ، قل ان يختلف في معناها قارئان .

في حوار لي معه . وكان يومئذ رئيس تحرير الموقف الادبي ، قلت له بين الجد والدعابة ، اي بحسب التقاليد بيننا :

بعض كتابك ياصدقي ، وكثير من شعرائك لا افهم عليهم ، فاما انهم لا يقولون شيئًا وانت مسؤول عن حشو المجلة بالاشياء الخاوية ، واما انني لا استطيع اللحاق بافكارهم ، وهم بذلك يناقضون دعواهم المجلجلة بالالتزام مع الجماهير .

انا واحد من الذين ليسوا دون الوسط في فهم اللغة العربية ، فاذا كانت كتاباتهم تأتي الي احيانا طلاسم لا املك مفتاح فكها ، فلمن يكتبون ومع من يلتزمون ؟..

اجابني ضاحكا ... يكتبون للمستقبل ..

قلت له ، هذا عذر للذين اختاروا ابراج العاج او صوامع الزهد ، لا الذين اختاروا طريق الشعب .. حبذا لو تصبح المجلة يوما بعد يوم اكثر قربا من الجد ، واكثر قربا من عقول الناس وافئدتهم ..

سارع الى القول : لنترك لهم فرصة التجربة ، وليتعلموا من انفسهم (لا من القسر او الكبت) ، كيف يصلون الى انتاج أدب حي .

مثل هذا الموقف ينقلنا بالضرورة الى فهم المزية الرائعة والنادرة لدى صدقي ، والتي يتسم بها ادبه كله ، الا وهي : مزية الحرية والموضوعية.

في سلوكه اليومي ، كان متميزا بكثرة معارفه وتنوعهم ... كانت المتناقضات تلتقي في بيته المتواضع ...

اناس من مختلف النزعات والآراء ، كانوا يجدون انفسهم وجهـا لوجه ، ودون اية كلفة . كان الحوار الانساني الرفيع يسود بينهم ،وايمان صدقي بالحرية يلف اجواءهم .

كان يؤمن بأن النقاش الحر الودود ، في اي موضوع كان ، حتى في السياسة والمبادىء ، هو الذي يعبر عن صدقهم مع انفسهم .

لم يحاول مرة ان يفرض رايه على احد ، كان آراءه ويدفع بالآخرين الى عرض آرائهم ، ومن هنا كان تأثيره اكثف مما يتصور اي من عارفيه. كان سامعوه يتشربون آراءه ويلتصقون بها ، اذ تأتي اليهم وكأنها معالم نيرة ، لهم كامل حريتهم في قبولها او في رفضها بينما كانت افكار الكثيرين ــ ولو انها على قليل او كثير من الصواب ــ تبدو منفرة ، لانها تنطلق عنهم وكأنها قيود بغيضة تفرض نفسها على الآخرين بدلا من ان تحظى بقناعتهم .

في كل انتاجه الادبي ... في الفكر .. في الحب وفي النضال ، صدقي لا يصدر مراسيم ، ولا يفرض مسارات ، ولكنه يساعدك فكرا ونموذجا، على ان تطلق قواك باسرها ... نحو الثورة ... ثورة جوهرها الحرية المستمرة ، وتجسيدها رفض الواقع ، لا مزاودة بالرفض ، وانما للسمو بهذا الواقع ، وخلق الشروط الملائمة لمزيد من الابداع والفرح والاخاء .

عندما تقرأ كتبه ، تجد نفسك امام صديق ودود ، لا يلزمك ، وانما ينشر امامك ما جناه ، تختار منه ما تريد وترفض ما تريد ، وهو اذ يحترم نفسه ويمارس حريته في كل ما كتب ، يثير في نفسك حب الحرية ويدربك اكثر فاكثر على ممارستها .

لعل افضل تعريف للصديق ، هو انه الذي تعيش الى جانبه كامل حريتك ، ولا يشعرك حضوره بأي حرج ، ولو سئلت عن افضل مزية للادب ، لقلت انه الذي لا يجرح حريتك ، بل يدفعك اليها الى المزيد من توسيع آفاقها ، ويزودك بعد ذلك على قدر ملاءته بالعناصر التي تنميهــا .

اليست المعرفة الى جانب الكفاية المادية شرطا رئيسيا من شروط الحريــة ؟

كان صدقي في حياته التدريسية مربيا أكثر منه معلما ، وفي احـد تأولاته يقول عن التربية : انها ليست التي تعلمك ، وانما هي التي تضعك على الدرب الى المعرفة . كان يريد أن يخلق جيلا يفهم ويبدع لا جيـلا يتقبل ويختزن ... وهل ثمة ادب اغنى واجدى من ادب يحررنا ، بدلا من ان يعتقلنا ...؟

ثمة حقيقة ... نقرها جميعا : ابدا لا يختار من اقفلت عليه الابواب . الا اننا لو فتحنا جميع الابواب ، ولم نفتح جيدا اعين السائرين ، عبثـا نطلب اليهم أن يختاروا درب السلامة .

أيها الاخوة ...

ذلك هو صدقي كما نراه في انتاجه ، اديب اصيل ، وموهوب ، رفعه جده وملاءته وشعوره العميق برسالة الادب السامية ، الى مصـاف الخالديـن .

كان علي أن امضي الى تقديم نماذج عن ادبه ولكن سبقني اليها مفكرون وادباء بارزون ... قدموا امامكم قراءات عن نقده ، وتناولوا قصتـه وشعره ، ومسرحياته ولم يبق عليّ الا ان القي بعض الضوء على مزية ينفرد بها ، او على الاقل لا يجاريه فيها اديب ، هي : شعره الضاحك .

قد يذهب بكم العنوان الى زاوية مرحة لشاعر مرهف : النكتة ، والسخرية ، والصور التي تثير الضحك وتنشر المرح .

على أن كل هذه الاشياء ، ما كان لها أن تصبح موضع اهتمام خاص في مهرجان للذكرى ... لولا انني اجد صدقي يتميز فيها كما ونوعا . فلست اعرف قديما او حديثا شاعرا يضاهيه فيها . لبعضهم بيـت مازح واحيانا ابيات مرحة ، ولبعضهم قصائد هازلة ... وهي نادرة . اما صدقي فله جريدة الكلب وما يتصل بها ، جمع أكثرها في ديوان ضخم ،

ما تكاد تبدأ به ، حتى يتخلى عنك الغم والنعاس ، فتضحك وتضحك ، الى أن تصيح بك الديوك ، وتداعبك انوار الصباح .

ولكن السكرة تمضي وتأتي الفكرة كما يقول اهلونا ، وتتبين فجأة ان للضحكة احيانا همومها ، وأن للابتسامة احياناً دموعها . فصدقي الذي عاش مع الشعب واحبه وترعرع على ارض الوطن وعشقها لا يمكن ان تأتي تعابيره العامرة بالصدق ، الا وهي تحمل في جدها ، ومزاحها ، كل سمات المقادير التي احاطت بهذا الشعب وبهذا الوطن .

ان قراء المجلد ـ الخاص بجريدة الكلب ـ ومازال خارجها قصائد كثيرة مع الاسف يستطيعون أن ينتقلوا مبتهجين بين عشرات الصفحات ومئات الابيات ولكنهم ما يلبثون أن يتبينوا خلالها كثيرا من تاريخ سورية السياسي ، يندرج بواقعية مؤلمة ، وكثيرا من الاحداث المأساوية . في حياة الشعب تسجل بأمانة ، وصورا متلاحقة من صميم حياتنا الانسانية تتوالى وتتكشف .

ما يلبثون أن يتساءلوا وقد امتلأوا دهشة واعجابا ...

كم تستطيع نكتة ان تسجل من حقائق ، وأن ترسخ من مثل ، وان تقدم من عبر . كم تستطيع ان توبخنا ونحن ضاحكون وان تكشف عن نقائصنا ونحن راضون .

لقد تناول صدقي عددا من اصدقائه ومعارفه ، وقسا على بعضهم في احيان كثيرة ، ولكنني لم اجد واحدا منهم الا ويعتبر ما قال صدقي فيه شيئا من أثمن ذكرياته ، وكلهم على ما أعتقد يروي مداعباته وشتائمه له ، حتى لينطبق عليه تماما بيت ارسلته الى سليمان العيسى :

رب مدح كاليعاسيب اذى ‏ ‏ ‏ ‏ وهجاء كلذيذات القبل

وفي الواقع ، الا يمدحك بعضهم فيصل مديحهم الى سمعك وخز اشواك . ويهجوك بعضهم فيصل هجاؤه الى سمعك عذوبة الحان ؟

لم تسبب له جريدة الكلب نفورا من صديق ، بل زادته اصدقاء ، ولا سببت له حقدا من عدو ، بل انقصت له عدد الاعداء ... وليس في الامر ما يدهش ، قلب صدقي قلب طفل ، لم يعرف البغضاء ، ولا مسه حقد ، ولا سرت في سماواته سحابة شر . لقد أحب الحياة والناس ، وتجلى حبه في جده ومزاحه ، وعندما هجا لم يشعر الذين هجاهم بظلم الكلمات ولا بقسوة الصور ، لانهم شعروا بكل ما وراء ذلك من وداعة وحب وموضوعية ، تتعدى اشخاصهم ، واحيانا تتعدى مرحلتهم وبلدهم .

نبدأ بقراءة جريدة الكلب ، فتلوح لنا في البداية وكأنها مهرجان ممتع : ولكننا لا نكاد نستوعبها حتى تنشر امامنا تاريخا موثقا وترسخ في ضمائرنا صورا انسانية لا تمحى ... وتبرز لنا حقيقة جديدة وغنية هي انالحكمة لا تأتي دائما على شكل سقراط : لحية وصرامة ، بل تهرع الينا احيانا على جناح نكتة ، او تموج على ابتسامة طفل ، تأتي الينا احيانا ببساطة ومرحا ، قصيدة في جريدة الكلب ، احلى صورها واقربها الى القلب .

ايها الاخوة :

آمل أن أكون قد وفقت في انارة الطريق الى قراءة صدقي ، او القيت عليها بعض الوميض .

أيام الطفولة كنا نسمي سليمان العيسى الشاعر ، ونسمي صدقي ، صدّيق ، ولبى سليمان الحدس فكان شاعر الكفاح القومي غير منازع ، وكذلك لباه صدقي : ، ظل في كل ما عاش وما انتج صادقا مع نفسه صادقا مع أقرانه ، صادقا مع وطنه وشعبه ، ومع كل ما يموج في وجدانه من مثل انسانية سامية .

عاش يحمل قلب طفل ومضى يحمل قلب طفل ... اليس لطفا غامرا من الدنيا ، ان تنضجنا الايام دون ان تسلب منا الطفولة ؟

اليس قدرا سعيدا ان تتزين الانسان بعقل يخطط ويعي ، ويظل له قلب يرقص ويحب ويغني ؟ .

صيف عام - ١٩٧٢ - مبيل الرحيل كان لنا موعد على شاطىء اللاذقية ولكن توقف القلب الودود وامحت افراح اللقيا .

منذ ذلك الحين ، ما تزال تسألني عنه لوحات الغروب الالهية ، وتسألني عنه الامواج العاشقة ... وما ازال التزم امامها الصمت والحيرة . لا استطيع ان اقول انه اهمل وعدا ، وهي تعرف انه صدوق ولا استطيع ان اقول انه مضى وانا اشعر انه باق ... في قلوب أهله واصدقائه ، في وعي قارئيه وضمائرهم باق مع كل صاف وعميق من أدب شعبه ، ومع كل فنان اصيل ومناضل في وطنه الكبير وفي رحاب الانسانية .

كان غيابه قبل الاوان ، وربما في موسم العطاء الاوفى ، ولقد مضى ، تاركا ما ينفع ويبقى :

روائع من النثر والشعر ، وافكارا تضيء لشعبه وللناس ، ولكن الذين عاشوا معه يعرفون ان اروع مقال كتب ، واعذب قصيدة غنى :

حياتـه نفسـها ...

المضمون السياسي في الأدب القصصي عند صدقي اسماعيل

د. حسام الخطيب

ـ ملاحظات عامة ـ

في الكلمة العميقة المتوهجة التي كتبها قبل بضـع سنوات الاستاذ انطون المقدسي بعنوان : « صـدقي اسماعيل وافاق الفكر القومي العربي المعاصر » ارسى انطون عددا « من المقولات الاساسية التي اشتهي ان اقدم خطوط زبدتها في مستهل هذا التفحص المتواضع لفكر صدقي في ادبه القصصي ، وما ذاك فقط لان هذه المقولات تؤلف جانبا هاما من الاساس الذي يستند اليه التفحص الحالي ، ولكن ايضا « لانهـا تؤسس تسويغا » ومشروعية لبحث كهذا طالما ترددت في كتابته بعد ان نشرت دراستي المطولة عن رواية (العصاة) لفقيد قلوبنا وفكرنا وادبنا صدقي اسماعيل (١) .

(١) ووالله ، ما زالت النفس ، بعد مضي احدى عشرة سنة على فقد صدقي ، تتحسّر وتتنهد كلما ذكر اسمه ، كاننا فقدناه امس .

وفيما يلي خطوط مقال المقدسي : (دون مراعاة لترتيب ورودها في المقال) .

ـ « وكان عربيا « وفيا » ضحى بلذاته كي تكون ثمة عروبة ، وكان مفكرا « واديبا » ، فكره في ادبه على غرار اجدادنا » .

ـ « ان يكون صدقي اسماعيل (١٩٢٤ ـ ١٩٧٢) حلقة من حلقات الفكر القومي العربي المعاصر ، يكمل خطاً ترقى بوادره الاولى الى أواخر القرن التاسع عشر ، ومن اعلامه ساطع الحصري وزكي الارسوزي وعزة دروزه وغيرهم فتلك حقيقة .... » .

ـ « الا ان صدقي يختلف عن هؤلاء الاعلام في انه لم يحاول يوما صياغة فكره في قضايا محددة ، او ان يدخل عليه أقل ترتيب ، بل تركه ينمو عفويا » ، يستلهم الواقع ويتغذى منه ويساير حركته ، كما انه لم ياخذ باي مذهب فلسفي ولم يتقيد باية ايديولوجيا » .

ـ « ..... كان اديبا وفنانا ، مذهبه الواقع بالوانه و انغامه اللا محدودة ، ومنهجه وجوده .... » (٢) .

هذه الخطوط العريضة تمثل مجمل الحكم العام على فكر صدقي اسماعيل ودوره .

ولنضع هذه الخطوط في خلفية ذهننا ولنحاول ان نتلمس بعض التفصيلات المتعلقة بموضوعنا الخاص .

١ ـ يتالف تراث صدقي القصصي من :

ـ رواية (**العصاة**) ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٤ .

ـ مجموعة (**الله والفقر**) ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٧٠ .

---

(٢) المقدسي ، انطون : (صدقي اسماعيل وآفاق الفكر القومي العربي المعاصر) الموقف الادبي ، ملف خاص عن صدقي اسماعيل ، ع ٧٧ ، ايلول ١٩٧٧

ـ (**حب المرقش الاكبر**) ، رواية قصيرة تاريخية ، نشرت في المجلد الخامس من **المؤلفات الكاملة** .

ـ رواية لم تكتمل بعنوان (**الحادثـة**) ، نشرت في المجلد الخامس من **المؤلفات الكاملـة** .

وليس هذا التراث كبيرا ولا خصبا ، ويبدو ان صدقي التفت الى فن القصة والى جانب الادب بوجه عام في مرحلة متأخرة من حياته ، ربما بعد ان ادركه اليأس من امكان معالجة المسائل التي اراد معالجتها بالطريق المباشرة وربما تأثرا بجان بول سارتر والوجوديين الذين ابتعدوا عن الافكار المجردة وآثروا تفحص الافكار وتوليدها من خلال مواقف شخوصهم القصصية وتصرفاتها .

٢ ـ على الرغم من عنايـة صدقي بعرض الافكـار السياسـية والاجتماعية (*) في قصصه وتفحصها وتوليدها ، فانه لا يبدو للقارىء المدقق ان المسألة السياسية الاجتماعية هي التي تحظى بالافضلية لدى الكاتـب .

وفي رأيي ان ولعه الخاص ـ وبالتالي تألقه الخاص ـ كان متصلا بحقلين اساسيين هما علم النفس الانسانية وحركة الافكار ، ومثل هـذه الامور لا تخفى على القارىء حتى لو شاء الكاتب الا يفسح المجال لافضليات الخاصة ـ ولا سيما في اعماله القصصية التي يفترض أن تستقي توزيـع افضليات الاهتمام فيها من قانون بنيتها الداخلية لا من مزاج المؤلف أو رغباته . ولكن المسألة تفضح نفسها بسهولة ، فقد لاحظنا عند جميع

(*) يرجى تفسير ما يرد من اشارات احيانا الى الناحية الاجتماعية الى ان الدراسة الحالية جزء من دراسة اوسع تتناول المضمون الاجتماعي الى جانب المضمون السياسي . وسـ ف تبنى الدراسة الاجتماعية على هذه المقدمات .

الروائيين ــ وبنسب متفاوتة ــ مزالق كثيرة سببها انسياق المؤلف ، ربما دون قصد تام ، وراء ولعه الخاص كلما اتيحت الفرصة من خلال تطورات العمل القصصي .

وفي رواية (**العصاة**) امثلة كثيرة على انسياق صدقي وراء عالم النفس وعالم الافكار حيثما اتيحت له الفرصة .

٣ ــ وعلى اي حال ، وحتى لو كان الحكم السابق قابلا للاخذ والرد فان تفحصا عاما للمضمون الفكري والسياسي والاجتماعي في اعمال صدقي القصصية يظهر أن الايام لم تتح له ان يقدم كل ما اراده في هذا المجال من جهة ، وان فن القصة جذبه ــ من جهة أخرى ــ الى ارتياد حقول اخرى من تفهم التجربة الانسانية اشد التصاقا بالعالم الداخلي للنفس الانسانية .

اذ كان صدقي ــ كما هو واضح ــ مهتما بالانسان الفرد بوصفه الوحدة الاساسية في الكون ، وربما كانت علاقة الانسان بالكون والمصير عنده أكثر اثارة من علاقة الانسان بالمجتمع .

ويعود ذلك الفهم الى طبيعة النظريات القومية التي تأثر بها ، وكذلك الى مناخ الفكر الوجودي ــ ولا سيما السارتري ــ الذي بسط ظلاله على الساحة الادبية العربية في الخمسينات والستينات ، والذي لم يكن صدقي بعيدا عن مقولاته الاساسية .

٤ ــ لكن يبقى شيء مهم جدا ، وهو أن كل ما تناوله صدقي مما يخص النفس الانسانية وحركة المجتمع ، اي الذات في حركتها الداخلية او في اطارها العام ، ينم عن نفاذ بصيرة وذكاء لماح ، وفهم عميق ، ومقدرته على التحليل والربط ، معا يشكل متعة واثارة للقارىء .

وتدور تحليلاته واستنتاجاته الفكرية والسياسية والاجتماعية في نطاق الهم القومي الاكبر ، وبعبارة اخرى في نطاق قلقه العام لمصير الامة

العربية ومستقبلها ، وايمانه بالتحرر والتقدم والتطور ، وفيما عدا هذا التحديد العام يصعب ان نلمح خيوطا لنظرية يفسر صدقي من خلالها ما يحلله من ظواهر ، او يتنبأ بوحي منها بما يحتمل ان تؤول اليه الامور .

٥ ــ تظل **العصاة** العمل القصصي الاساسي ذا الطبيعة السياسية وفي أعماله القصصية الاخرى يصعب الحديث عن اي مضمون سياسي ، ولذلك سينحصر كلامنا في المضمون السياسي برواية « **العصاة** » .

وبالطبع قد يطلع علينا غدا احد المتمحلين الذين تعج بهم الساحة الادبية فيقول ان قصة « **الله والفقر** » مثلا تتضمن نقدا للنظام السياسي ، او ان « العطب » قصة موجهة مباشرة ضد المحافظ ، ممثل الحكومة . ولكن ارجو أن أؤكد من الآن ان مجموعة « **الله والفقر** » بعيدة جدا عن السياسة ، بل لا يتوفر فيها الحد الادنى من المضمون السياسي لاية قصة عادية ، وليس فيها كذلك ايحاءات أو محاولات ترميز لمسائل سياسية . اللهم الا اذا اردنا أن نحمل مثل هذه الاعمال غير ما تحتمل .

مــاذا في « العصــاة » (٣) ؟

ليس الحديث عن « **العصاة** » جديدا . وقد سبق لكاتب هذه السطور ان نشر دراسة مفصلة عنها ، ظهرت أولا في مجلة **المعرفة** (٤) ثم في كتاب « سبل المؤثرات الاجنبية .... » (٥) .

---

(٣) ظهرت في بيروت عن دار الطليعة عام ١٩٦٤ ، ثم اعيد نشرها في اسماعيل صدقي : المؤلفات الكاملة ، المجلد الثالث ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ص ١٥ ــ ٣٩٢ .

(٤) الخطيب ، د. حسام : « العصاة » ، المعرفة ، ع ١٣٠ ، ك ١١ ، ١٩٧٢ .

(٥) الخطيب ، د. حسام : سبل المؤثرات الاجنبية واشكالها في القصة السورية .
ط ١ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٣ .
ط ٢ ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٧٤ .
ط ٣ ، المكتب العربي لتنسيق الترجمة ، دمشق ١٩٨٠ .

وكانت تلك دراسة موسعة للرواية بوصفها عملا فنيا من جهة ، وبوصفها ــ من جهة اخرى تجربة قصصية ناجحة في تاريخ التفاعل بين القصة العربية السورية والمؤثرات الاجنبية .

وقد جرى التعرض للمضمون السياسي والاجتماعي بقدر ما تسمح مقتضيات الدراسة الفنية .

وبالطبع يفترض المرء ان الخطوط الاساسية لهذا المضمون لم تكن غائبة عن تلك الدراسة .

وحتى لا نقع في التكرار نؤثر ان نقدم ملخصا سريعا للنقاط المتعلقة بهذا الشأن لتكون منطلقا لما سيتبعها من تفصيل ومناقشة واستقصاء للظاهرة لا يخرج عن اطار الموقف الذي قدمته الدراسة السابقة :

١ ــ تعرض ((العصاة)) قصة تطور الفكر السياسي في سورية خلال النصف الاول من القرن العشرين ، وتتناول من احداث الحياة السياسية ما يخدم هذا الغرض فقط .

٢ ــ لذلك اتى الاطار التاريخي هشا والمواقف من الاحداث انتقائيا .

٣ ــ لا تعنى الرواية بالربط بين التطورات التي تتعرض لها ، وتغفل الكشف عن وجود عامل مشترك (المطامع الاستعمارية) من وراء مسلسل الاحداث والمآسي التي اتصف بها تاريخ سورية الحديث ، بل تاريخ المنطقة العربية بأكملها .

٤ ــ تناولت الرواية بين حين وآخر تطورات الفكر الاجتماعي الذي رافق التطورات السياسية ، وبرز في هذا المجال دور المرأة واضحا . ولكنها ، في هذه المرة ايضا ، لم تكشف عن الروابط المتينة التي تصل احيانا الى درجة الجدلية او الدياليكتيك ، والتي تشد تطور العقل

الاجتماعي الواحد الى الاخر من جهة والتي تشدهما معا الى مجرى تطور الحياة العامة من جهة اخرى .

٥ ـ فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية اكتفت الرواية ـ كما هو الشأن بالنسبة للحياة السياسية بأضواء متفرقة غير متسلسلة ، وكذلك بلمحات سريعة غير متأنية ، وكان الاستثناء الاساسي من هذه القاعدة التعرض المفصل لطبيعة الحياة الاجتماعية في كل من لواء اسكندرون ودمشق البرجوازيـة .

٦ ـ غلبت المادتان السياسية والنفسية على الرواية حجما وعمقا ، وعجت سطور الرواية بمناقشات متصلة بهاتين الناحيتين ، وكـان جزء كبير مما يتعلق بالمضمون السياسي مقحما ومباشرا .

خطوط المضمون السياسي في « العصـاة »

ان « العصاة » رواية تعالج مسألة تطور الفكر السياسي في سورية (لا الحياة السياسية) ، ولذلك كثرت فيها المناقشات السياسية وطالت وتنوعت ، واحيانا كانت تفرد فيها فصول كاملة لمناقشة موضوع سياسي بطريقة مباشرة تماما ، ومثال ذلك (الفصل التاسع والاربعون) الـذي يتضمن دراسة سياسية مباشرة حول الاحزاب السياسية في سـورية خلال الفترة المدروسة ...

وتكاد الرواية تشير الى مختلف انواع الافكار السياسية التي تمخضت عنها تطورات الحياة السورية منذ انتهاء الحكم العثماني وحتى منتصف القرن العشرين ، وتعرض هذه الافكار من خـلال موقف انتقادي غـير متشدد ، ويبدو أن عرض هذه الافكار ، تلميحا أو تصريحا ، هو الذي كان يعني المؤلف بالدرجة الاولى ، أما تفسير أسباب ظروفها ، ولا سيما مع خلال زاويتي التطورات المحلية او التأثيرات الاجنبية ، فكان يحتـل المرتبة الثانية من عنايته .

وكان نقد هذه الافكار يأتي ثالثا ، وغالبا ما يتم عن طريق التصرف بالعرض او اتاحة الفرصة لشخصية معارضة ان تقول رايها في الموضوع .

ولذلك فان هذه الرواية لا تبشّر سياسيا ولا تعظ ، ولكنها تظهر خصوبة مرحلة سياسية وحيوتها واضطرابها الداخلي من جهة ، وتوحي من جهة اخرى ـ بما تنطوي عليه المرحلة من امكانات تطور مستقبلي .
كان طبيعيا ان يأتي ترتيب الافكار مستندا الى التسلسل الزمني (كرونولوجي) وما ذاك فقط لان بنية الرواية (رواية تاريخية كلاسية (دم) تفرض على المؤلف اتباع التسلسل الزمني (الكرونولوجي) ، بل كذلك لان المؤلف جهد بقدر المستطاع ، ودون ان يرهق الرواية او يبهظها بالاحداث ، ان يربط تطور الافكار بتطور الاحداث ، وما اكثرها في بلد مثل سورية وفي مرحلة كالنصف الاول من القرن العشرين :

مرحلة النضال ضد الاستعمار ، ومرحلة الاستقلال ، ومرحلة تأكيد الشخصية العربية ، لبلد لم تتركز مؤامرات الاستعمار على سلخه عن الجسم الام فحسب بل عملت بدأب على تمزيق أوصاله الداخلية ، فكانت معركة تثبيت الذات عنده ذات طبيعة مزدوجة .

ولنستعرض الآن مع المؤلف اهم نقاط الفكر السياسي التي عرضتها الروّاية ، ربما مع ما يتاح من تعليقات :

١ ـ العهد العثماني :

يتعرض المؤلف مباشرة لفساد الحكم في الايام الاخيرة من العهد العثماني ، ويركز بوجه خاص على مسألة الفساد هذه ، ويقف طويلا عند السلطان عبد الحميد ، ويحاول أن يضع يدا على الخلل الكبير في الادارة والحكم الذي انطلق من السلطان وانتقل الى من هم دونه ، ويتوقف عند ولاة سورية في تلك الفترة . فيبين جهلهم وفسادهم وظلمهم

وسوء حكمهم ، كما يبين سرعة عزلهم وما يرتبه ذلك من عدم استقرار الاحوال في سورية ، ويشير في كثير من الحالات الى المصير القاتم الذي آل اليه معظمهم ، اذ كانوا ينتقلون من أوج السلطة الى الاعتقال أو التصفية الجسدية .

وقد عنيت الرواية عناية خاصة بابراز الدور الخاص الذي كان للنساء في افساد الدولة من خلال الدسائس والانحراف والتلاعب بالحكام بدءا من عبد الحميد حتى ولاته .

(الفصل ٣ ـ ١٠ .)

وتنتقل الرواية بعد ذلك الى شرح وضع العرب في الدولة العثمانية ، ويبدأ بجمال باشا فتصفه بأنه « رجل قوي يحب العرب » ـ ص ٨٤ ؛

ثم تعرج الرواية على (جماعة الاتحاد والترقي) وتكشف عن نواياهم ، ثم تذكر (جمعية الحرية والائتلاف) وتعلق عليها ، وتخلص من ذلك كله الى رصد بداءة شعور العرب بوجوب النضال في سبيل حقوقهم وتحولهم من الموقف السلبي الى الانضواء في الجمعيات السرية التي انطلقت في البدء من مطالب عامة هدفها الاساسي تحسين وضع العرب في الدولة العثمانية والحفاظ على مقومات هويتهم القومية ، ولذلك تركزت مطالب هذه الجمعيات على شيئين :

الاول : صيانة اللغة العربية (ردا على محاولات الاتراك لاحلال اللغة التركية محلها ـ سياسة التتريك) .

الثاني : المشاركة العربية في وظائف الدولة .

ويبدو الكاتب واعيا تماما للمضمون السياسي الذي يقدمه للقارىء ويعلق تعليقا مباشرا بوجه خاص على بدء تطور الوعي السياسي لدى العرب فيتحدث مثلا عن ابراهيم قائلا :

« ...... بدأ يفكر جديا في الامور السياسية ، ويندمج في العمل الحزبي . وهذه المرحلة تدل في الواقع على ان ظروفا جديدة قد طرات على البلاد ، اذ ليس من المعقول ان يتغير رجل مثل ابراهيم بمثل هذه السهولة — ص ٨٨ . » .

ويمضي المؤلف قدما في محاولة تحليل العاملين اللذين كانا يحركان العمل السياسي في ذلك الحين ، وهما العامل الشخصي (تثبيت موقع القدم في الوظيفة او المركز) ، والعامل القومي (العزة القومية التي كانت في مستهل ظهورها) ؛ وعنده ان المسألة بدات هكذا بتضافر هذه العاملين الذاتي والقومي حينا وبتناوبهما حينا أخر .

ويقدم المؤلف بعد ذلك صورة مختصرة ولكنها مركزة ووافية بالغرض عن مؤتمر عاليه ، وظهور فكرة الاستقلال عند العرب ، ويشير الى موقف جمال باشا من ذلك ومطامحه الشخصية — ص ٩٠ — ٩١ .

ومما يلفت نظره بالنسبة للحياة العثمانية الفساد الشديد الذي كان كان ينخر جسم الحياة العسكرية العثمانية والفوضى التي نجمت عن هذا الفساد ، ويقف بعض الشيء عند ظاهرة الفرار من الجندية التي كانت معروفة في تلك المرحلة . الفصل ١٩ ، من ص ١٠٠ — ١٠٤ .

٢ — **تطور الوعي السياسي العربي** : (ابتداء من الحرب العالمية الاولى) . يوحي الحوار في الرواية بأن الوعي السياسي العربي — كما هو معروف تاريخيا — بدأ في أواخر العهد العثماني وازداد مع تصاعد الدعوات الى القومية التركية ؛ وكان يرد عليها بمزيد من التمسك بالخصائص العربية .

وكانت بداءات هذا الشعور العربي — كما توضح الرواية — مشوبة بالغموض وباختلاط المفهومات القومية والدينية .

كما صاحبها كثير من التهور في البدء ، وتشير الرواية الى ان الوعي العربي اخذ ينضج مع بدء الثورة العربية نفسها ، ويمثل الخال رمزي ، وهو ابن الشام والناطق باسم المؤلف حتى مرحلة سلخ لواء اسكندرون ، بذور الوعي العربي ، ويتضح في افكار التدرج باتجاه الانتقال من التساؤلات والتردد الى الانخراط في الثورة السورية ضد الفرنسيين عام ١٩٢٥ .

وتشير تساؤلاته عن مصير الثورة واهدافها الى ان المؤلف اتخذه ناطقا لا بافكار المرحلة السابقة فقط بل بافكار المرحلة التي عاشها المؤلف نفسه .

وعلى الرغم من ان المؤلف اشار في مطلع الرواية الى ارتباط احداثها واشخاصها وافكارها بشرطهم التاريخي فانه وجد نفسه باستمرار منساقا الى معالجة الوضع العربي (اثناء مرحلة كتابة الرواية (الستينات) والى الاعتماد على سلسلة من الاسقاطات التاريخية على تلك المرحلة ،ولذلك تكررت في السرد عبارات قافزة فوق المراحل ومنتقلة بالرواية الى مقالة سياسية تتجه باتجاه تعميمات تقريرية حول النضال العربي والوضع السياسي كقوله : الحالة عندنا (الفصل ٢٢) وكذلك :

ـ ان العرب بحاجة الى مزيد من الخبرة والدماء في القضية القومية.

ـ من دون الشعب المسلح يبقى الجميع تحت رحمة الطغاة .

ـ ان شبح الزعامة والحكم يقطع الطريق على كل جهاد متميز .(ص١٢٠)

وهذه الاحكام قدمت في الاصل على انها بعض الافكار التي كانت تراود رمزي من خلال انشغاله الفكري المتزايد بقضية الثورة العربية .

ومما يتصل بقضية الثورة العربية تعرض الكاتب لشخصية الملك فيصل ومحاولته رسم بعض خطوطها .

وهو يقدمها أولا بوصفها ممثلة للعقلية العربية البدوية ، وينسب اليها صفة الاصالة ، وصفة الحذر البدوي الطبيعي ، ويقف بعض الشيء عند تواضع هذه الشخصية ويشير الى انه تواضع مفرط وصل الى درجة تستثير النقد ص ١٢١ ــ ١٢٢ .

ولكن هذه الشخصية لاتترك بغير نقاش ، وذلك بسبب معرفة المؤلف بأن شخصية فيصل خلافية .

انه يعقد مناقشة مباشرة بين الخال رمزي والثائر الشيخ ، في النبك ، يفهم منها أن فيصل سلم سورية للفرنسيين وذهب يستجدي عرشا له في العراق ، مع ان الشعب العربي السوري كان مسلحا وكان في مقدوره ان يصمد وان يواجه قوة فرنسا كما اثبتت وقائع ثورة عام ١٩٢٥ .

٣ ــ سلخ لواء الاسكندرون :

يعرض المؤلف للحوادث التي رافقت مأساة سلخ اللواء بشيء من التفصيل ، ربما يفوق ما خصصه للاحداث السابقة ، وبالطبع يمكن ان يحال هذا الاهتمام لاتصاله الشخصي بالموضوع وحيوية وقائعه في ذهنه .

ومع ذلك يميل الكاتب هنا الى الانتقاء والاختصار والاكتفاء بالنتوءات البارزة كما فعل في ثنايا الرواية كلها .

وتقدم احداث اللواء من خلال تجربة سعاد بنت الجد محمد التي تزوجت الشاب اللوائي يونس رغم ارادة ذويها ، ويتوقف المؤلف عند شخصية لوائية اخرى ويحيطها بصفات الاعجاب الشديد ، ولعل المقصود هو زكي الارسوزي :

« وكان المتحدث شابا وسيما يشرق في عينيه الزرقاوين صفاءالفجر في أفق صيفي وادع النسمات » ص ١٤٢ .

وفي الرواية اشارات مختصرة لافكار هذا الشاب ، ولعل الجملة التالية مثلا مقتطفة منه :

« لسنا عربا فحسب ، بل نحن أيضا رسالة الشرف والحق في تاريخ البشرية » .

ونجد الاشارات والتواريخ في هذا الباب اكثر دقة من اي باب آخر، كما أن حرارة الحديث الناجمة عن الملامسة الشخصية لاتخفى على القارىء .

٤ ــ معركة الاستقلال وسنواته الاولى :

تثير الرواية مسائل فكرية كثيرة متصلة بمناخ التهيوء للاستقلال في الاربعينات ، وتبرز من بين شخصيات الرواية شخصية قادرة على المناقشة والتفلسف ، لتضع مختلف الامور موضع تمحيص وتساؤل ، وهي شخصية أستاذ التاريخ ن. أيوب ، المثقف ، العارف ببواطن الامور ، الذي لايقتنع بشيء ، والذي يقوده نفاذ نظرته وشعوره الدائم بقذارة اسرته الى الكلبية ومن ثم الانحلال الفكري والخلقي .

وهكذا نجد أن المؤلف يختار لكل مرحلة شخصية معينة ، او اكثر احيانا ، لتنطلق بهمومها وتعبر عن طبيعة القلق الفكري والسياسي التي تساور الاذهان في الفترة المعنية .

ويفسح المؤلف لهذه الشخصية أن تعلق ، من خلال مناقشاتها مع الشخصيات الشابة المتطلعة الى الثورة ، على مختلف الافكار المطروحة في السوق السياسية ، فيضع موضع التفحص مفهوم الدولة ومفهوم الحركة الثورية ومفهوم الوجدان الشعبي ، ويأتي بمفاجآت فكرية منها مثلا أن مفهوم الدولة الذي سعت الحركة الوطنية الثورية لتحقيقه ليس سوى قيد يضرب من حول الثورة وانه لكي تستمر الثورة لابد من تقويض هذا المفهوم (ص ١١).

« كيف نريد الجماهير ... ثوارا متمردين ام مواطنين صالحين .... ان الحرص على الدولة يجعلنا في صف واحد مع السلطة التي نحاربها ... ونكون قد قضينا على هذا التفتح النضالي الثائر الذي نراه في صفوف الشعب ، ونتغنى به ..... » ص ٢١١ .

وفي ضوء هذا المفهوم يستغرب ن. ايوب حماسة الشبيبة الثورية لقانون خدمة العلم ، لان هذا القانون يضع امكانات جديدة بيد الدولة . ويفسر للشبيبة عدم تجاوب الناس معهم بهذا الصدد بتأكيده ان ابناء الشعب « يريدون خبزا لا بنادق » .

وتمتد مناقشات الرواية حول مسائل مثل التناقض بين الوسيلة والغاية في العمل الثوري ، وحول مفهوم الخطيئة في الروح الشعبية ، وحول الحماسة القومية في سورية لمحاربة الفرنسيين ، وحول تدفق الشباب للتطوع في المعركة ضد الفرنسيين ، وحول الاسلام وما تبقى له من اثر في الحياة العربية الحديثة ، وحول مفهوم الاستقلال وحقيقة الصراع الدولي على سورية ودور الانكليز في المنطقة وغير ذلك .

وتتعرض الرواية كذلك الى اساليب الغدر السياسي (ومنها الاغتيال) التي كانت سائدة في المرحلة ، كما تشير اشارات عابرة الى مسائل مثل ارتباط الطبقات الحاكمة بالانكليز او الفرنسيين ، وفساد السياسيين واستغلالهم لقضية الاستقلال ، وجبن الرسميين وتآمر الحكام ، والفرق بين النضال الجدي والجعجعة ، وملابسات معركة الاستقلال في سورية ودور الانكليز ومصلحتهم في ذلك .

كما يحرص المؤلف على تأكيد استمرار التباين في الموقف من السلطان (وهو الخط المستمر في الرواية) بين الافكار التقليدية التي تقوم على الولاء المطلق للحاكم والدولة (يمثلها الشاب الريفي عمران الذي ورث الافكار عن جده) وبين الفكر الثوري الجديد الرافض لسلطة المؤسسة .

والمؤلف – كعادته – يثير المشكلات ولايحلها .

ويختم الكاتب هذه المرحلة بفصل خاص قصير (ص ٢٨٠ ــ ٢٨٢) عن نشوء الاحزاب في العهد الوطني ، ويختار في هذه المرحلة شخصية جديدة للاتكاء عليها من اجل عرض نواحي الفكر السياسي في هذه المرحلة ، وهي شخصية هاني المنذر .

على ان المؤلف يعرض كل شيء بسرعة فوق عادية ، ولا يتوقف عند اية نقطة ، والمشكلة انه بدافع من هذه السرعة ينتقل فورا من السرد الروائي الى التقرير المقالي .

وبالفعل يمكن مثلا ان ينشر الفصل التاسع والاربعون على شكل مقالة مستقلة عنوانها : « نشأة الاحزاب في العهد الوطني » ، وتبدأ هذه المقالة على النحو التالي اي لايحتاج الفصل الى تغيير كلمة واحدة ربما سوى ابدال الاسم الحقيقي لهاني المنذر بالاسم الروائي المستعار :

« وجاءت الفرصة المواتية في الانتخابات العامة . وكانت أولى التجارب الديموقراطية في حياتنا السياسية بعد الاستقلال ، وقد اعتبرتها العناصر التقدمية نقطة تحول خطيرة في مصير البلاد ، لا لانها مناسبة لان يبدي الشعب رايه في الحكام الذين كانوا يفرضون عليه في الماضي ؛ بل بسبب التطور الاجتماعي الذي طرا على حياة الشعب » ص ٢٨٠.

واهم الافكار التي يقدمها المؤلف في هذا الباب :

آ ــ العناصر التقدمية اعتبرت تجربة الانتخابات العامة نقطة تحول .

ب ــ تشكلت احزاب ناشئة تدعو الى افكار جديدة لم تعهدها الحياة السياسية من قبل .

ج ــ اضطر السياسيون القدامى لتجميع انفسهم في احزاب خاصة بهم .

د ــ رفعت شعارات متباينة ذات اتجاهات شتى .

هـ ـ ليس المهم هذه الشعارات ولاطبيعة الافكار السياسية نفسها ولكن المهم هو :

ـ تأليف حزب على اساس فكره .

ـ انصهار الافراد في العمل الجماعي .

ـ اقتحام الاشخاص المغمورين ميدان السياسة .

ويوضح المؤلف حذر السياسيين القدامى من فسح المجال لاي عنصر جديد ، و استعدادهم في الوقت نفسه لاستثمار اية كفاءة سياسية تثبت وجودها ، والالتفاف عليها بدلا من مقاومتها .

٥ ـ حرب فلسطين :

من المعروف أن قضية فلسطين فرضت نفسها على الحياة السياسية السورية في وقت مبكر جدا ، فمنذ أن نشأت الاحزاب دخلت قضية التحرير في برامجها . ومنذ أن امتدت المعركة السياسية خلال السنوات التي تلت الاستقلال حتى اشتعلت الحرب على ارض فلسطين ، وتبارت الاحزاب والشخصيات السورية في التطوع للقتال على ساحة المعركة . ومن شخصيات العصاة التي سارعت الى التطوع هاني المنذر الـذي « كان في طليعة الفرق المسلحة التي تمركزت في منطقة صفد تحت لواء المجاهدين » ص ٢٨٢ .

ومن الشخصيات الاخرى التي تطوعت للقتال في فلسطين الشاب عدنان مع نفر من طلاب الجامعة وقد اختاره المؤلف لشرح ملابسات التطوع ومغزاه .

واهم النقاط التي يثيرها هنا :

١ ـ كانت الفرحة شديدة بالبندقية والبزة العسكرية .

٢ ـ بدلا من المعركة كان الانتظار والتربص .

٣ ـ عدنان لم يمارس الاشتباك مع العدو .

٤ ـ وقع فريسة المرض وكانت قوته الجسدية اضعف من ان تلبي تطلعاته المعنوية فكان نموذجا لمأساتنا نحن العرب : « عنفوان صارخ لايملك الاداة السليمة للوصول الى مايريد » . ص ٢٨٥ .

٥ ـ خلقت معركة فلسطين تذمرا شديدا وشعر الجميع بأن الحكام يتآمرون ، وان خسارة فلسطين نكبة شاملة للامة العربية .

٦ ـ من هذه التجربة المرة ومن خلال تجربة الحكم الوطني انبثقت افكار العمل الانقلابي الذي ساد تفكير الثوريين السوريين وسيطر على المرحلة التالية .

٦ ـ استمرار الكفاح :

بعد مأساة فلسطين انتقلت الشبيبة الواعية الى معركة اصعب واشد تعقيدا وهي مرحلة الكفاح الداخلي ضد الاستغلال والانتهازية والعنف والفساد . ولم تكن جوانب المعركة واضحة ، ولم تكن الطريق معبدة ، ولم تكن افكار الشبيبة متطابقة ، وبرزت افكار (العصبة) والشباب العربي والبعث وتلاطمت مع الافكار الاخرى ، وانتهت رواية العصاة دون أن يحسم شيء ، ولكن بذرة الثورة والكفاح السياسي كانت قد غرست في النفوس وتحولت الى تصميم شارك فيه ابن المدينة (عدنان) وابن الريف (عمران) :

« وذهبا الى حلب ، وفي خيال عدنان اعنف صور الكفاح السياسي مادام قد توافر المال ، ولكنهما حين فتحا الصندوق وجداه ممتلئا بنقود عثمانية باطلة » الصفحة الاخيرة ٣٩١ .

هل ترمز الخيبة المالية الى ان الحركة الثورية يجب ان تعتمد في كل شيء ، بما في ذلك الناحية المالية ، على نفسها ، وانها يجب أن تبدأ من

جديد في كل شيء ، وانه لن يجديها لو سخرت العملة القديمة لصالحها ، بل عليها ان تبدأ في كل شيء من الصفر .

ان (الصندوق) رمز للقيم القديمة في الرواية ، وتنتهي الرواية الى انه زائف تماما ، فهل هذه هي رسالة لصدقي اسماعيل السياسية في ((العصاة)) ؟

اغلب الظن ان صدقي كان يلعب مع احتمالات الافكار والتاريخ ، وانه كان مع التقدم والانقلاب والثورة ، ولكنه كان حريصا على تجنب التبشير والتضخيم والاثارة ، وكان مستريبا باليقينية وربما بقوانين التاريخ ، واراد للشبيبة الصاعدة ان تستمر في النضال دون أن تحيط نفسها بهالة من الاوهام ، وذلك خشية على نضالها نفسه من ان يتعثر من جراء الخيبات المتلاحقة ، وان يفقد مقدرته على مسيرة النفس الطويل .

ومااوضح ماأثبتت مرارة تجارب الطليعة العربية صدق رؤية صدقي لقد كان صديقا ، وكانت مرافعته الاساسية ضد الزيف والبهلوانية .

مسرح صدقي اسماعيل

عبدالله أبو هيف

- ١ -

سابدا بداية مغايرة ، سابدا من النتيجة ، وهي ان صدقي اسماعيل من هؤلاء الفنانين النادرين الذين يخلصون لذاتيتهم بوصفها التعبير الساطع عن انسانية فاجعة ومفجوعة ، في اطار ظرفها التاريخي ، ومفجوعة في اطار شروط الضعف عندما يكبل صاحبه بقيود الحياة ، فيصبح فن صدقي اسماعيل مراوده للحرية شاحبة حينا ، ومتالقة حينا آخر ، من اجل تحقيق الوجود الذاتي .

وعلى هذا يتلمس المرء ملمح كتابته في الشعر اساسا ، فهو شاعر وجودي بالمعنى الاعم ، وما صنوف الكتابة ، او تصاريف الدهر او شجن الرؤيا الا ملمس الكريستال وصورته . عالم صدقي اسماعيل ، ذات مفجوعة بشرط الوجود اصلا ، وتجليات تحققه في الحقل التاريخي او الواقعي ثانيا . وتبدو اعماله جميعها تعبيرا هادئا عن تلك القيود المرهفة الشفافة مثل نزهة في الروح ، او استجابة للراهن على نحو تأملي بحت . وهكذا ينفر اسماعيل ـ مثل الكثيرين من جيل « الينابيع » اللوائي وفي مقدمتهم سليمان العيسى ـ من نظرية الادب ، ولاسيما اجناسه ، ويكاد يلتقي مع اصحاب النظرية التربوية في الادب التي تحول الفن الى وسيلة تربوية بحتة ، هي معبر الفكر الى مثاله السامي عندما يتكىء على الواقع ليسند تطلعه المشروع للوجود ، ان اسعفته الحرية او كابد الفاجع لافرق. ولا يهم بعد ذلك ، ان استقام هذا الشكل او ذاك . اننا نقرا حطام الراهن على ارض العقل الفني ، ولكن الرؤية تظل كشيمة تخييلها او حبيسة الفكر . اننا نحس ذلك العقل الفنان المجنح الى افق الشعر العريض ، والمجهض الى حدود اسر التجسد الحي للعقل الفنان في حساب فضاء الحرية ، لانها لزوم الوجود عينه . يموت المرء دون حريته ، ويموت المرء دون حبه ، ولكنه يتشبث بوجوده في انهاك الظرف للذات ، وفي ذلك التطور التاريخي غير المنسجم الذي يصوغ على نحو ما قابليات هذا الوجود .

اجل ، ان لصدقي اسماعيل طريقيه ، فهو كما قال عنه انطون مقدسي: « فصدقي فنان ، شاعر على طريقته اذا شئت ! ابطاله عاشوا في ذاكرته قبل ان ينتقلوا الى خياله صورا نابضة بالحياة ، والفن هو الحرية وكلاهما جوهر الوجود ، كلاهما غاية بذاته في الحياة الدنيا » (١) .

ان الحيرة ازاء تصنيف اعمال صدقي اسماعيل المسرحية تزول اذا نفينا التباس المصطلح ، ومرد ذلك ان المصطلح عنده يتخلق اثناء الكتابة

نفسها . فليست أشكال الادب هامة قدر حرصه على توافر شكل ما ، يكون اطارا للتجربة الانسانيةالواسعة لشخوصه مستوعبا لمداهاالوجودي.

فهل كانت اعماله المسرحية مسرحا ؟

وهل كانت أعماله المسرحية تعبيرا عن ذاتية خالصة ؟

من المؤكد ، انه يصعب علينا ان نسميها مسرحا . ومن المؤكد انه لايصعب علينا ان نراها تعبيرا عن ذاتية خالصة .

تبدو القضية على النحو التالي : يريد الكاتب ان يكون او لايكون من خلال قومه ، حتى يمكن القول : ان ادب صدقي اسماعيل هو محنة حكيم القوم عندما يريد خلاصه ضمن خلاص جماعته ثم لايرتاح الى خلاصه فيصير ادبه الى قلق فردي عميق يستكن في عمق اعماق الروح يؤرق او يعذب ، ولا يشفي .

اما الشكل ، أما المعالجة ، فهي صنوف من التعبير منذورة لوجه نقاوة الموقف من فاجع الحياة ، اذ يتراكم على حواف الروح ويحيلها الى قوة مناهضة للهزيمة الوجودية المحققة او المدبرة . وربما كانت هذهالقوة المناهضة هي فعل الحرية الذي يتلفع فعل الثورة او اسمها ، وكان الوجود ناتج ثوري بعد ذلك .

ان مهزلة الوجود عند صدقي تجد صواها الدالة في حطام الروح اذ ينطبق على حطام الراهن في عملية بارعة لـ لملمة الرؤيا ، وهي تنوع العزف على اداة التغيير ، دون ملموسية واقعية الا من مصداقية الفن عندما يستجيب للمصير الفاجع المتجسد في نبرات الوجود كلها .

ان الشكل في كتابة صدقي المسرحية هو لملمة الرؤية في بعض شروط العمل المسرحي ، وكانه يعتمد على مأثور الراي في فن المسرح : لافرق بين دراما الفن ودراما الحياة ، فنحن نماثلبينهما كلما أعوزتنا الشهادة

او المحاجة ، وعلى الفن أن يومىء الى الفعل الدرامي في الحياة ، فهـو يستجيب بالمقابل الى اعمق اعما قروحنا . وبذا يتساوى الفنان وجمهوره في تجنيح الرؤيا . نوع من الفلسفة الوجودية تنادي الداخل الانسـاني بوصفه قيمان الخارج المكسور . وما مهمة الفنان الا ان يلتم على ذاته ويتأملها في زمن مهيض الجناح وكأن هذا الالتمام جماع الشكل الفني نفسه .

هناك حوار ، وحدث وشخصيات وصراع ، ولكن استخدامها يوافي المسرح ، ويجافيه حينا آخر ، ولعل في استعراض اعمال صدقي المسرحية مايوضح وجهة النظر اكثر .

- ٢ -

لصدقي اسماعيل اربع مسرحيات ، وجميعها نشرت في حياته ، باستثناء الفصل الثالث من مسرحية « عمار يبحث عن ابيه » ، وهي :

١ ـ « سقوط الجمرة الثالثة » ، مسرحية في فصل واحد وخمسة مشاهد . (١٩٦٤)

٢ ـ « الاحذية » ، مسرحية قصيرة في مشهدين . (١٩٦٦)

٣ ـ « عمار يبحث عن أبيه » ، مسرحية في ثلاثة فصول . (١٩٦٨)

٤ ـ « ايام سلمون » ، قصة تاريخية في حوار مسرحي . (١٩٧٢)

ومن الملاحظ ، ان المسرحيات جميعها ، نشرت ، للمرة الاولى في دوريات « الموقف العربي » و« الجندي » و« البعث » و« الموقف الادبي » حسب توالي نشرها ، ولم تجمع في كتاب الا في المجلد الخامس من الاعمال الكاملة ؛ مما يشير الى حرص مؤلفها على الانتشار الواسع والسريع بالدرجة الاولى .

- ٣ -

تبدو مسرحية « سقوط الجمرة الثالثة » المواجهة الاولى مع الذات لاستكناه ملامح التغيير الحاصل في بنية مجتمع مضطرب بعوامل التجديد. بدر الدين السالم نائب سابق يخوض معركة الانتخابات الجديدة ،ويرتب محاولة لاغتياله باربع رصاصات مفاجئة تمهيدا لترتيب وضع جديد يكرس ما هو سائد .

في المنزل ، نفهم انها محاولة لكسب مؤيديه وزيادة عددهم حيث يصبح الرصاص ضروريا لتسيير الظروف لمصلحته :

« ومن ناحية ثانية ، لاتنسي ان الشعب هو دائما ضد المعتدي .. في كل بيت سوف يقولون : من هذه النكرة الذي اطلق الرصاص على بدر الدين السالم . العاطفة لها اهميتها في السياسة ، بل ان هذه الطلقات الاربع يمكن ان تعطيني اربعة آلاف صوت زيادة » (ص ٢٧١) .

اجل ، مصلحة الرجل فوق كل اعتبار ، حتى انه طلب الى اخته « اميرة » ان تطلق زوجها لانه لايخدم المصلحة . اما وداد ابنة بدر الدين فهي ناقمة وقلقة وملولة لما اصاب والدها برصاص الحاقدين من هؤلاء الرعاع .

ان عائلة السالم ريفية انتقلت الى المدينة ، وان الماضي لايغيب : الام عند اهلها في فصل الربيع ، والاب خائف من اصوات رصاصاته الطائشة، والفتاة يزعجها الرشح . لقد حدث ــ بتعبير الاخت اميرة ــ ما يشبه سقوط الجمرة الثالثة ، اي اندلاع شرارة الثورة ، وفي عراء النفس ، تفتح الابواب كلها ، تقول اميرة :

« وفي آواخر شباط .. تهب الرياح الدافئة وتنتشر الطيور ، ويكون سقوط الجمرة الثالثة فيخرج الناس الى البرية ، ولايعود احد تحت السقف او بين الجدران .. يحدث هذا في مثل هذه الايام » (ص ٢٨٢).

على أن أعراض التغيير تظهر مع ماجد خطيب « وداد » ، اذ تكشف أبعاد الحالة أكثر . عائلة السالم تتحرك دفاعا عن كرامة شخصية اعتزازا بالعائلة وحفاظا على اسمها ، بينما يشارك ماجد العائلة هواجسها ويعلن عن حبه الذي ينمو داخل احساس صون كرامة السالم ، ويدافع أيضا عن مبدأ مشاركة السالم بالانتخابات ، فهي قضية شخصية « فردانية » « ففي مثل سنه يصبح الشعور بالزمن شيئا مخيفا ، ولاسيما في حياة رجل قوي الشخصية مثله .. يرى نفسه وهو ينحدر بين الآخرين دون ان يلتفت اليه أحد » (ص ٢٨٧) . ويوافق ماجد على أن مجرد الانتماء الى بيت السالم كاف للشعور بالزهو والكبرياء ، ثم يغتبط بعد ذلك كثيرا بصراحة وداد لان الصراحة اساس الحب .

وعندما يدخل عاصي السائق الى المنزل ، يلتقي بماجد ، وتتبدى جوانب اخرى من لعبة السياسة التي تنزع الاغطية عن عمق مايجري : الخوف من الحياة لدى هؤلاء العابثين بالحياة ؛ فهم يرون الحياة مدار استغلال للآخرين (الشعب) (٣) ، ولدى اختلاف المدار ، تصبح الحياة مرفوضة او ان ثمة خطأ في الكون .

يصور صدقي السائق خبيرا بخفايا الصراع السياسي ويوجه النائب السابق أحيانا ، والجميع متفقون على انها لعبة يجمعون اطرافها علـى ضمان المصلحة بالدرجة الاولى ، الا أن باطن الامور يدل على سقوط الجمرة الثالثة ، هاجس الثورة المخيف . لقد اصابت العدوى مقتلا . تقول وداد : « فقد نبشنا كل شيء » (ص ٣٠٤) .

صحيح ان ماجد متعاطف ومتضامن مع النائب السالم ، وينوي الزواج من العائلة ، ولكن الحقيقة انها عدوى التغيير التي اصابت أطراف الجميع وبدأت تنذر بالثورة ، ولعل في تشريحه لمعنى الواقعية السياسية برهانا واضحا على حرصه على دوام المصلحة ، ولكنه وعي من يتحسس خطر التغيير . يقول ماجد :

« انه يحدد حقيقة الموقف .. المرشح الذي ليس سياسيا بالمعنى المألوف .. قد يكون مغامرا او مرتزقا شديد الطموح ؛ او مهووسا يحب الشهرة .. مادام يستخدم العنف ويعمد الى اثارة الضجيج .. قد يكون هذا كله ، ولكنه لا يمثل نفسه ، بل هو انذار الى الجميع يوجهه هؤلاء الذين يمشون وراءه ، كأنهم يقولون : هانحن ، جميع المحرومين نخرج الى الساحة .. وقد اعددنا العدة للقتال .. بعد ان جردنا من السلاح أمدا طويلا .. اننا نرفض هذه الحياة » (ص ٣٤٠) .

الخوف من التغيير هو الخوف من الحياة ،والشعب هم اعداء الحياة. اما دوام الوضع فهو البهجة والنصر ، ولكن الشعب يرفض هذه الحياة . وهذا هو جوهر اعتراف ماجد لعمه المنتظر ، النائب السالم ، ان ثمة مشكلات تكمن وراء الانتخابات للبرلمان هي التي تفاقم الاوضاع خطورة ، وتفتح الباب للعنف مصراعيه . بينما يعتقد السالم ان كل مشكلة تحل نفسها بنفسها ؛ وان اشاعة المخاطر ، و « الدنيا على فوهة بركان » هي من لوازم تفكير الخصوم . والحق ، ان بدر الدين السالم يدافع من منظوره بالذات : ما حدث هو لعبته في اطار ترتيب مختلف او مستمر للاوضاع . ولا تتفق هذه النظرة مع نظرة ماجد الذي وجد في اطلاق النار تحذيرا من المستقبل ، وها هو ذا يدعو عمه الى رؤية الواقع وفهمه جيدا ، فان كان الاغنياء لا يرتبون العالم على هذا الشكل او ذاك ، فانهم لا يستطيعون الاستمرار بهذا او نقيضه ، فهناك التاريخ وقوته التغييرية الجبـارة .

وهكذا ، يصبح بدر الدين رمزا لآلية الظلم ، وماجد علامة على حتمية التغيير . وربما تكمن قيمة المسرحية في ذلك التقرير المعروف : ان بدر الدين كلف السائق عاصي باطلاق الرصاص ، أجل ، هي » لعبة صغيرة علمت الجميع كيف يتحدثون عن نفوسهم وآرائهم .. وعواطفهم الدفينة ايضا » .. ولكن ، اليس ما قيل هو اوجه اخرى للنزاع المتأصل

في ذات تحلم بوجود حر ؟ وهذا هو جوهر ما يعتمل في ذات صدقي اسماعيل. ان المسرحية عبّرت عن ذاك الصراع المرير بين الثورة والثورة المضادة في رؤية ذاتية خالصة لواقع يمور بالمفاجآت التي يستطيع المرء ان يتلمس طوالعها في تنامي الوعي التاريخي. وما فعله صدقي اسماعيل هو تصوير ذلك الاعتمال بهذا التنامي محاطا بقلق روحي عنيف صب بعض نبراته على لسان شخوص المسرحية.

هل نقول ان شخصيات المسرحية غير متطورة او منسجمة مع مواقعها؟ وهل يستوي التبشير او الرؤيا النفاذة عند ماجد وعاصي مع اوضاع رجل يسعى للزواج بطبقة آفلة، او رجل ارتبط بمصالح طبقة مهزولة، وهما يعرفان هذا كله، وينظران له مثل افصح الفصحاء في الثورة والثورة المضادة ؟ هو سؤال طويل، مثل مناجاة صدقي اسماعيل الطويلة، المنثورة بعض عباراتها وملامحها على السنة تتناقض مع وضعها لكي يسطع وضع جديد.

والا، كيف نفهم حديث ماجد الوجود المأساوي عن محنة البشر، وهم يدركون ان مصيرهم يتطوح بين الذات والتاريخ ؟ ربما كان هذا بالذات عيب المسرحية، وربما كان نجاحها كذلك. بهذه الفصاحة المكتوية بلسعة الوجود الفائض في الزمان حينا، الثابت في حضن التاريخ حينا آخر. وبهذه الفصاحة المكتوية بلوعة المزاج الذاتي المرير، الموحش او الآمن، يخاطب ماجد ودادا :

« ان اكبر حادثتين في وجود الانسان انه يولد بمفرده، ويموت بمفرده ايضا، ويقضي العمر كله في انفراد موحش اذا لم يقدر له ان يعرف الحب حقا .. انه يحس بان الآخر لابد منه. وانه ليس آخر بل معنى الحياة كلها. تماما مثل الزمن نعيش فيه ونعرف ان النهاية معه ايضا (ص ٢٩٢).

في هذا التصالح بين الذات والآخر، بين الزمان والتاريخ، يطوح صدقي اسماعيل اغترابه العنيف في مدى قرداني بهيج، هو حلم رائع

بسيادة المحبة داخل الانفراد الوحش . فيالها من مصالحة تتسرب في ثنايا نص يتصدى لمقبل الثورة على انقاض الثورة المضادة ، ولكنها الذات وشواغلها تريد ان تطوع النبض الوجودي الى حل مشكلة الانسان في الواقع .

لقد حاول صدقي اسماعيل في هذه المسرحية ان يستخدم مصطلحات الوجودية ، وهذا واضح وان تحتوي هذه المصطلحات صراعا عقائديا وسياسيا ، في مزاوجة واضحة ايضا بين الذاتي والعام بقصد التغلب على احادية النظر عند الوجوديين . وبقصد نفخ الصراع العقائدي والسياسي في تلافيف ايقاع ذاتي مخلص لنداء دواخله وشواغلها القلقة ، المترددة ، الجريئة ، الحزينة ، المتعلقة بحرية او مسؤولية او بتماه كامل بين الفرد وموضوعه مقتنعا ان هذا التماهي هو رحابة الوجود او شرطة الانساني .

- ٤ -

تدور مسرحية « الاحذية » حول فكرة الثورة من منطلق انقلابي مشحون بمدى ذاتي خالص ، حيث تتجول شهوة التغيير بين الذاتي والعام ، بين الداخل والخارج ، ضمن بنية النص بارتياح مشهود .وتجد هذه الشهوة تعبيرها المكتمل في تبادل الادوار بين شخوص المسرحية ، وكأن هذه الشخوص جميعها وجوه لشخصية واحدة ، تقلب النظر في فعل الثورة ، ثم تنخرط فيه بوثوقية مطلقة .

سعاد متزوجة من نزار المحامي ، واختها ليلى تحب ايمن الذي التحق بجيش الإنقاذ.اثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٧ .

تزور ليلى سعادا في بيتها ،ويدور حديث عن الحياة والزواج والنضال مما يكشف عن طرفي صراع بين نمطين للوهلة الاولى ، نزار وسعاد والتعلق بنمط الحياة الاستهلاكية من جهة ، وليلى وايمن والتعلق بمثال الحياة

الاعلى من خلال الارتباط بقضية كبرى من جهة أخرى ، وتكون المعادلة في النتيجة التالية : تحرير فلسطين يعني انقاذ الحياة اليومية . لقد كلف نزار بالنزول الى العاصمة لجلب احذية واسلحة لافراد جيش الانقاذ، ولكن لا يكفي ان تنفذ مهمة وانت متطوع ، وينبغي الحفاظ على المبادهة الثورية ودعم العملية الثورية ، فيتبادل الاثنان الادوار فجاءة حيث ينضم نزار للثورة .

يجري تبادل المهمات على الفور ، فياخذ نزار الاحذية والمتاع والاسلحة ، ويلتحق أيمن بالثوار ، ويصبح من قادة الثورة . هل نرى في المسرحية اتباعية جديدة ؟ ان صياغة المسرحية تشير الى عناصر تقليدية صارمة : النبرة السريعة المتانية الواضحة والمتالقة والمتوازية في الامساك بموضوع حيوي هام . وعندما نتمسك اكثر بكلمات المسرحية ، تؤكد بالمقابل على اعلان صدقي المبكر للمخاطر المتزايدة المترابطة بالقضية الفلسطينية في صميم الحياة العربية ، يقول أيمن :

« اذا لم تستنفر غرائز الكفاح عند الجميع ، الغرائز بكل قوتها ، فلن يكون لناشيء من المستقبل . لن تذهب فلسطين فحسب ، بل سوف تلحق بها أقطار اخرى » (ص ٢٦٠) .

ولكن هذا الاعلان الشعاري وجه من وجوه تغليب المبادهة الثورية التي قادت الى تبادل الادوار ، وربما كان هاجس الثورة الانقلابي هو الذي جعل المؤلف ـدون مسوغ كافـ يبادل الادوار كاطار لمعاينة دواخل ذات تضطرم بمشاعر التغيير ، فتصوغها من لسان الى لسان .

— ٥ —

ربما كانت « عمار يبحث عن ابيه » اصعب كتابات صدقي اسماعيل المسرحية ، فهي متداخلة ومتناقضة ، ومتشعبة ، وتختلط بالشعر تماما وتعرض افكارا كثيرة دون البوح بأسرارها ، على ان هذه الكتابة مما يدخل

« يقولون في البدء كان الحريق
وكانت عروق اللهيب
توشي صحارى الزمن
وما كان في الارض حي
ولا منزل للسكن ..
ولا فيء غصن وريق
ومن ثم جاءت رياح المطر
فسال على الارض ماء الحياة
واورق ظل الجماد
ولم تبق من ذكريات الحريق
سوى غيمة من رماد
فكانت نفوس البشر »

(ص ١٣٤ — ١٣٥) .

هي قصة الصراع مع الطبيعة اذن ، ولكننا عندما نسمع صوت الفلاح ، نلاحظ ارتهان الصراع كله بالوضع التاريخي للفقر بسبب مواقيت المطر ، فنعود ثانية الى التنازع بين الممكن والمستحيل ، بين جهد البشر والمقدور . يقول الفلاح :

« يارب ، يامن تعرف الاسرار
اغفر خطايا شعبك المسكين
العار ليس الفقر ، يا قهار
يدعوك فلاح يداه من بقايا طين
قد اخلفت ميعادها الامطار
هـذا العـار »

(ص ١٣٩)

عمار هو ابن الاقطاعي منصور الحامد ، وقد جاء الى القرية بحثـا عن أبيه بناء على طلب الاخير ، ولن نخوض في دلالات البحث عن الاب في الاعمال الادبية والفنية ، وهي كثيرة(٤) ، الا ان البحث عند عمار يمزج بين الخاص والعام على نحو مدهش ، ويكشف الرؤيا باستطاعة تعبيرية تجنح الصراع الازلي بين الناس والارض ، بين الناس والافكار ، بين الناس والحلم ، الى مدى وجداني خالص تضطرم فيه التنازعات ، وتصطرع شهوة التغيير ، وكأن الوجدان هو ارض الواقع بعد ذلك .

ثمة موقفان في المسرحية هما موقف الثوار ويتقدمهم سعد الديـن الكهل السبعيني ، الذي حارب مع منصور الاقطاعي في جيش الانقـاذ سنة ١٩٤٨ ، وقاد ثورة الفلاحين ضد منصور الاقطاعي نفسـه .

ويشترك مع سعد الدين عناصر الشبيبة الطالعة ، ويمثلهم فاروق وسلمـى .

والموقف الثاني هو موقف منصور الحامد وعائلته ورجاله ، ولكننا لا نلمس ، فيما يبدو ، الا صوته وصوت الام وحضور ابنته زهرة التي يستوي وجودها وعدم وجودها ، مما يذكرنا بمكانة الشخصية المسرحية: هل « أوفيليا » ضرورية ؟(٥)

وما ان نغادر منتصف المسرحية حتى تخرج المسرحية من الموقفين الى موقف واحد بوجهين ، هـو موقف صدقي اسماعيل الذي خـذل الشخصية المسرحية ، ورهن الفعلية كلها بالصراع داخل وجدانه بوصفه وجدان الآخرين العامر بالمكابدة والشوق الى الحياة ، مكتفيا بتوزيـع الصراع ، دون تحققه الفعلي ، ومن خلال تأمل شاعري عميق مفعـم بأصالة التفكير ومضاء التعبير ، على اصوات تتبادل الراي ، وتتحمـل صورة المكابدة او الشوق بما يرضي الضمير او يؤرقه اكثر . وهكذا ، يتحول الصراع حول الارض بين الثورة والثورة المضادة ، بين الفلاحـين

والاقطاعي - بين الثوريين انفسهم حول الفكرة وتحققها ، الى صراع على ارض الحلم نفسه . والمعول في هذا كله ، هو شجاعة الرؤيا التي تربط بين الخاص والعام ، ولا يؤثر تردد صدقي اسماعيل في اختتام مسرحيته، وحيرته في وضع فصلها الثالث ، على اهمية انجازه التقليدي الباهر(٦) : مسرحية كبيرة تحمل قابلية التفسير .

يلوح صدقي اسماعيل في بداءة مسرحيته بأن الاخفاق الذاتي هو نتيجة اخفاق عام ، فمن غير النافع ان يجرد المرء اسلحة الصراع من مجرد الرغبة في التقدم وحده الى غائية مطلقة ، فالثورة مرتبطة بتبديل اوضاع مستعصية . ولقد رهن صدقي اسماعيل الثورة ضد الاقطاع واحقيتها بالعودة المخفقة من فلسطين ، وهذا هو الحاحه على التلازم بين القومي والتاريخي ، ولكن مجابهة الحقيقة وشجاعة رؤية الواقع تنطلق من ساحة الذات ، ولا ذات في الوجود متحققة الا ضمن الفعالية العامة . وتجسد اصوات المسرحية المتنازعة ارادة التحقق الذاتي من داخل هذا التلازم . ولعل في استعراض الفصل الاول اشارة الى طبيعة هذا التجسيد . واضح في هذا الحوار حس المثاقفة المتغلب على رؤية الواقع :

« سعد الدين : ما من احد يجوع عندما تخصب
الارض .. انها تغني الجميع .
فاروق : (يقاطعه في جد) اذا كانت ملكا
للجميع .
سعد الدين : (في جد مفاجىء) الارض لا تمتلك بالسلاح ..
انها عملية اغتصاب ..
فاروق : (في انفعال) هو الذي اغتصبها من
ابائهم في البداية .. ويجب ان تعود الى اصحابها الشرعيين .
سعد الدين : بل اشتراها بما له .. لو كانوا يستحقون

لا اختار لهم اباؤهم هذا المصير .
فاروق : هذا ما يصححه ابناؤهم الآن .. اننا نختار من جديد »

(ص ١٣٨)

تحال القضية كلها للاختيار ، وهو تعبير او مصطلح وجودي شائع. هل صوت المثاقفة ومبالغة التماهي ؟ أم هو تفخيم اعتمال الذات بما يجري على ارض الواقع ؟ في الحالين ، لا يفارق صدقي اسماعيل فكرته : البحث عن الذات في وسط متغير .

يؤيد صدقي اسماعيل طريقته الخاصة بتكوين الشواهد التي تذهب مع التنازعات مذاهب قصوى :

« سعد الدين : لكي تكون جديرا بالارض يجب
ان تحبها اولا وتخدمها في
اخلاص » (ص ١٣٩)

« صوت : مضى العمر الا الاقل
كاسطورة نسجتها الحياة
غمام من الابحر النائيات
تجمّع ثم اضمحل »

« سعد الدين : الشقاء هو الجسد الذي يتحدر »
(ص ١٤٤)

« فاروق : منذ مئات السنين ، ونحن ضحايا
غدرهم : نحن واباؤنا واجدادنا التعساء ..
ولابد من اعادة النظر في جميع الامور ..

كان على منصور الحامد ان يفهم بنفسه
هذه الحقيقة . (يستدرك في مودة)
اتعرف اننا انذرناه بها ونحن في فلسطين !
(ص ١٤٧)

« نشيد جماعي : فقلنا لهم : ثائرون

هبونا السفينة والذكريات
واحلامنا الباقيــة
الى ان تعيد الينا الحياة
مخالبنا الداميــة
سئمنا الشعار وراء الشعار
سئمنا حديث الخرافة
هبونا الرياح ، هبونا البحار
فانا نريد الثقافة » **(ص ٤٩)**

من الواضح ، ان الغلبة للنغمة الثقافية والهموم الثقافية تأكيدا لنزعة المثاقفة والتماهي بين الكاتب وموضوعه . ليس هناك فعل يتنامى ، بل أصوات تسعى ، ما استطاعت ، لتجسيد فكرة عصية على التحقق ، هي فكرة الثورة بينما الآخرون مشغولون بالآخرين او ذواتهم لا فرق ، وربما كان انشغال سعد الدين بتأليف كتاب عن « الظلمة والنور » ، وهو يستعجل ختامه ، ذروة التعبير اللفظي عن انهاك الرؤيا ، على انها ذبيحة الواقع ، فالحكمة انقرضت منذ زمن بعيد ، والمهم هوارادة الانسان ضد الاستغلال . ولكن ، كيف ؟

تعالج المسرحية في فصليها الاخيرين اجاباتها بالتنازع الصوتي لموقف واحد موزعا على شخوص وأصوات شخوص . ونميز في التنازع الصوتي انحياز صدقي اسماعيل للثورة ، ولكنها ثورة غير ناجزة اذ تتحول الــى

تشوف ذاتي مؤرق قائم على الاحساس الوجودي الحاد بالمعضلة : وحشة الحياة داخل ورطة الحيرة بين الحرية والقرار والاختيار والذنب والموت . وفي المسرحية مراودة ناصعة لهذه الجوانب كلها في رفق من التعبير والمشاعر والافكار ، تنتهي الى اختلاط هواجس الفردي بالتطلع الثوري ، والى معنى الوجود في تناقضه ، والى نزعة الذات التدميرية ازاء ورائة الثورة ، والى الموقف الوجودي المقهور في قلب الثورة . والنتيجة ، ربما قالها عمار على مضض :

« كلهم يكبرون ، ويكتشفون ذات يوم حكمة الاذعان . . طبيعة الاشياء التي صنعها الخطأ والغباء . . ورتبت فيها الامور على ابشع الصور . سوف يعرفون ان الخرافة وحدها هي المعقول . . الاسطورة الخيالية الجميلة هي الحقيقة التي تصنع العالم . . لانها ترفض أن تكون اياه . اليست هذه هي الثورة ؟ لعبة ساذجة . . بريئة . . كل ما فيها من ادوات يكون نقيضاً لما هو في الواقع . . حتى الانسان . . هذا هو فهمي للامور على الاقل . ومن اجل ذلك احمل هذه البندقية . عمار الباحث عن أبيه بكل حرارة الحب البنوي هو في حقيقته « قاتل ابيه . . » لعبة ممتعة . . » (ص ١٩٦) .

- ٦ -

اما حوارية « ايام سلمون » ، فالغلبة فيها للعناصر الروائية او الحكائية اذ تستعيد وقائع فترة حكم سنان باشا للشام في القرن الثامن عشر . وتعد هذه الحوارية ، او القصة الحوارية ، التتويج الاخير لنزوع صدقي اسماعيل الى المطلق : الخوض في لعبة السياسة الى مداها من منطلق ذاتي خالص . ليست سياسة الناس ما يريده سنان باشا ، وليست الولاية رغبة شخصية او هواية ترضي ، ولكنها ارادة الاصلاح لوضع الامور في نصابها ، فقد خاض سنان باشا الى منتهاه في لعبة

السياسة مدفوعا بقوة وجودية جبارة هي معاينة المتغير داخل المطلق تمكينا لفكرة العدالة في سياقها المطلق باعتبارها اسمى تعبير لارادة الوجود الانساني الحق (٧) .

يختار الوالي الولاية مسنا عن ترف ،ويواجه الصراع فورا مع الانكشارية (الحضور الدائم للقمع الحكومي المشروع من اجل الطاعة والنظام) والتجارة (صفوة الوجهاء المتنفذين واصحاب المصالح) . ولكي يكون الصراع كاملا (مشيئة السلطان ويمثلها الوالي وجند الآغا الانكشارية كما هو مفترض ـ وتعاليم الشريعة ، ويمثلها قاضي القضاة ـ وحمية الشعب ، ولا احد يمثلها) ، فقد كان اول قرار هو تعيين « الحسن » الشاب ممثلا لارادة الشعب . فتندلع الشرارة ، وتبدا الفتنة . الم يعلن الوالي الحرب على الانكشارية والتجار ؟ يجيب الوالي : ان الشعب هو الذي يتفاهم مع الانكشارية ، كما يجب ، وهو ما اكده الآغا ردا على الوالي ، اذ لن يجبر احد الانكشارية على تحمل الغربة من اجل البلد « مجانا » ، ويكون تحدي الوالي بالمقابل . لقد اصبحت المواجهة واضحة : الفلاحون المسلحون بقيادة الحسن وحكمة الوالي امام غطرسة الآغا وتسرعه ، واستعجال التجار وغفلتهم . والنتيجة الاولى ، هي اضراب المدينة ثلاثة ايام واعلان الفتنة ، فيباشر الوالي خطته ، ويطلب اذاعة بلاغ العفو العام تمهيدا للتنفيذ . لقد هز الوالي البلاد ، وتتوالى الاخبار .

رمى التهامي الصغير الشيخ نفسه من اعلى المئذنة احتجاجا على زواج اخيه التهامي الكبير من سلمون زعيمة بنات الخطا في الشام ، والتهامي الكبير تاجر كبير وصديق كبير للوالي . ويقرر الوالي ان يتابع مخططه : خطوة فخطوة ، وفي ميقاته .

زارت سلمون الوالي في بيته ، فهي مسؤولة عن الفتنة . والعلاقة واضحة : « عندكم جنازة وعندنا زيارة نادرة هي الفضيحة » ، ويدور حوار حاسم :

« الوالي : اعرف كل ماضيك ولم يؤلمني كثيرا ان احدهم قتل نفسه بسببك واعطى الآخرين فرصة للشغب ، ولكن يجب ان يوضع حد لكل شيء .. الى اي حد تجدين نفسك مسؤولة عن اضراب المدينة ؟

سلمون : لا اعرف ، يا سيدي ، سوى ان الاضراب يمكن ان يحدث من دوني ايضا وسوف يحدث .. شيء واحد فحسب يجعلني المسؤولة عن الفتنة كلها هو انني تحولت من بغي الى زوجة شريفة .. حين حدث مثل هذا ، اصبحت سلمون تستحق القتل .. اليس هذا ما تريدون ؟ (فترة ، في انفعال حزين) انني اتراجع عن كل شيء .

الوالي : (يضحك) وهذا هو الصواب ايضا .. (يتجاهل وجود سلمون ، كمن يتحدث الى نفسه) الامـر ذاته . سنان باشا ، المالك المزارع ، الوجيه ، اراد ان يتحول الى وال ، فاصبحت البلاد كلها زوبعة .. الذين يرفعون السلاح والذين يتمردون من اجل المعاصي ، والذين يغلقون الاسواق والحوانيت . اين كانت كل هذه النخوة من قبل .. (الى سلمون) ولكنها مسؤولية على كل حال .. اذن تعترفين بانك طرف في القضية ؟ » (ص ٦٩ — ص ٧٠) .

وعندما تحذره ، انها شريكة بالتفاهم ، ينقلب عليها الوالي بلهجة قاطعة ، فهي اداة طيعة بيده مثل البقية :

« تعنين او لا تعنين . مادمت ، انا الدولة ، فلكل شيء حد يقف عنده . خذيهم مثلما تريدين الا بصفتهم مامورين يعملون معي » (ص٧٢) .

ويضيف الوالي محتدا :

« لا بد من موعد آخر يا سلمون ! ما انتهينا اليه انك مسؤولة عن موت رجل ، وفتنة مدينة .. والآن اضفت شيئا جديدا هو تحقير الدولة . اليس هذا صحيحا ؟ » (ص ٧٣) .

تبارك سلمون ما قاله الوالي ، وتطمئن انه لا سبيل الا للتعاون مع الوالي ، فقد زوجها بنفسه ، وها هوذا يكمل خطته . وكان رد سلمون الاخير واضحا ؛ انها تدخل اللعبة عن عمد أو غير عمد :

« هل تعتقد انهم يضربون اليوم من اجلي ؟ لا .. لا فتنة الا ضد الوالي » (ص ٧٥) .

يخرج صدقي اسماعيل في هذه المسرحية عن الذات ليصول ويجول مقتدرا على ارض الواقع وفي الفعل السياسي على وجه التحديد ، ثم يعود الى الذات . رحلة وعي عميقة وطويلة بالذات او التاريخ ، لا فرق هنا ، حيث يصبح الوعي بالذات هو الوعي بالتاريخ .

يكسب الوالي سلمون وبنات الخطأ الى جانبه ، ويسلح الفلاحين بأمرة الحسن ، ويعيد الانكشارية الى العمل في الحقول فلاحين ، ويبدل ضريبة بضريبة في محاولة لتنظيم الاقتصاد المحلي ، فيحل مشكلة الاضراب وغلاء الاسعار بتخفيض ثمن الخبز والغاء بعض الضرائب .

وعندما ينتحر الشيخ التهامي الصغير احتجاجا على زواج اخيه من سلمون ، يلتف الوالي على غيرة الناس ودفاعهم عن الاخلاق ، فيامر بتشييع جنازة المنتحر رسميا وشعبيا ، ويأمر باصدار فتوى بذلك .

وأثناء وليمة في قصره ، يتخلص من الآغا ، وجنوده الانكشارية ؛ فتهدأ نقمة الناس ، ويحتاط الوالي للفتنة ويصبح الحاكم فعلا . ولدى تدخل زوجته في السلطان ، يتخلص منها ايضا ويطلقها ، ثم يزوج ابنته من الحسن ، وكانه زواج طبقي .

لا شك ، ان حياة سنان باشا وافعاله في منتهى الاحساس !! بلعبته السياسة حتى غدت اتجاها له ولمؤيديه . يقول الحسن :

« لا شيء يغفله هذا الزمن .. سنان باشا انتزع فتوى من قاضي القضاة بهذا الشأن .. هكذا اخبرني .. رآهم يدعونه شهيد الدين فأقر ذلك ، والقاضي نفسه أفتى أن الشهيد ذهب قضاء وقدرا ، سقط من المئذنة او استدعاه ربه الى الجنة لئلا يشهد مفاسد هذا الزمان » (ص ٩١) .

ويضيف الحسن متفلسفا :

« الزمن يعادي الجميع في النهاية .. ولكن لماذا لا يفكرون الا بالمستحيل ؟ » (ص ٩٤) .

هل سنان باشا نموذج للاستبداد الشرقي . انه يربط الحرية بالطغيان المشروط ، ويضفي عليه نفحة انسانية ؛ يقول سنان باشا :

« اذا لم يكن لك ان تقول كلمتك في شجاعة ، وتفعل ما تريد ، وانت في السلطة ، فمتى تكون حرا او تصبح حاكما بالفعل ؟ » (ص ١٠٧) .

ولكن الواضح جدا ، ان سنان باشا وجودي حتى النخاع ، باحثا عن الذات او العدالة المطلقة :

« سنان باشا يرفض كل ماضيه لانه صمم على الحكم ، ليس من أجل الولاية ولا السلطان ، بل لكي يعيد الاشياء الى طبيعتها لا اكثر » (ص ١١٨) .

يتفق سنان باشا مع اركانه على توزيع بيوت الخطأ في جميع الاحياء ، وتصدر فتوى بضرورة التسري في الخارج . ويطلب الى زوجته ، بعد طلاقها ، أن تعمل في خدمة البلد في أعمال الستر ، ويطلب ان تسلم سلمون للشعب لترجم ، ويحرق سوق الخيل ، ويصدر فتاوي اقتصادية ، ويكلف الحسن بمهمات المراقبة والامن ، ويأمر بناء مسجد مكان [illegible] باسمه .

طاقة حيوية هائلة تمد جوانح صدقي اسماعيل بمقدرة التعبير الخلاق عن شخصية فريدة هي شخصية سنان باشا . ولعلي ابادر الى القول : ان تألق سنان باشا هو بعض تألق صانعه . لذا ، نجد في ملامحه قلق العقل الفنان ومزاجه بين الذات والشرط التاريخي ، يقول سنان باشا مخاطبا زوجتــه :

« لم اكن الا ما كنت تريدين : الثراء والجاه والابناء وها هي السلطة تأتي اخيرا ، كل شيء الا الفرح الحقيقي ، والمسرة الجامحة ولا تجهلين كيف كان يمكن ان يأتي .. حتى مزاجي الذي خلقت عليه ، تخليت عنــه من اجلك .. المزاج الذي ينطلق الآن في عنفوانه ، ويطالبني بتعويض ما فات . أهي الكهولة ؟ ام خشية الانحدار ؟ ام تحدي الموت ؟ .. لا ادري .. (يضحك في شيء من المرارة) سنان باشا واليا يستعيد جموح الشباب ، ولكن تكون حوله الا الدماء الحارة » (ص ١١٨) .

تكتمل الدائرة في « ايام سلمون » ، فيندغم الوعي بالذات في مدى الوعي بالتاريخ تعبيراً عن فردانية مشغولة بمصائر عامة متداخلة بالذاتي تداخلا بينــا .

- ٧ -

نوجز خصائص كتابة صدقي اسماعيل المسرحية فيما يلي :

١ ـ مسرح اشكالي :

فهو على الدوام ، يعرض قضية مشكلة بين الخاص والعام ، وغالبا ما يصعب دخول الشخصية في موضوعها ، مما يجعلنا نميز بـين الفعالية الفردية ، والفعالية العامة للاشخاص ؛ فليست كتابة صدقي اسماعيل المسرحية بعد ذلك الا مراودة مستمرة لهذا التمايز من باب الارتياب اللماح ، او من باب الحماسة الموثوقة .

٢ ـ مسرح افكار :

كتابة صدقي اسماعيل معرض افكار دون صراع نام يحمل الافكار ويحيلها الى قوة الفعل المسرحي داخل علاقات عيانية مشخصة ، وهذه الافكار تتناقض عند من يحملها ، وغالبا ما يتحدث الاشخاص بغير لغتهم ، وخارج اطار السيرة الإجتماعية او التاريخية . وليست بعيدة عن هذا المثال شخوص « **السائق** » في مسرحية « سقوط الجمرة الثالثة » و « الحسن » في « ايام سلمون » ، وأكثر شخوص « عمار يبحث عن ابيه » الذين يتحدثون افكارا فلسفية عالية بافضل من بعض أساتذة الفلسفة في الجامعات .

٣ ـ مسرح تعبيري :

من الواضح ، ان هناك ميلا تعبيريا عند صدقي اسماعيل في أثواب الاتباعية التقليدية ، ولا سيما لدى جنوح الرؤيا الى مصاف الشعر ، او نبرة الغموض التي تحيط بالموقف الوجودي ، أو النبض الارتيابي ، اعتمادا على الانطباعات او « التحفيزات » من باب تفتيت الواقع وتركيبه وفق اختيار ذاتي خالص . هناك نتف من الواقع ، وكثافة شعرية ، وغزارة افكار غير محسوسة ، ثم يبلغ التجريد مداه في تلك النهايات اللفظية التي لا تساعد على خلق وحدة تأثير .

٤ ـ مسرح متنازع :

ثمة اساليب متعددة داخل الكتابات المسرحية ، وثمة اسلوب غير موحد في المسرحية الواحدة ، ولا سيما مسرحية « عمار يبحث عن ابيه » . ولعل هذا من آثار ممارسة نظرية الاتصال بين الفنون ، فالكاتب يستخدم الحكاية والشعر والنثر والسيناريو والحوار والرواية والوثيقة في اهاب واحد .

٥ ـ مسرح روائي :

كتابة صدقي اسماعيل تميل الى العناصر الروائية اكثر من العناصر الفعلية التي بها يقوم صراع ، وتتفاعل « دراما » الحياة داخل روع المتلقي . هو مسرح يتعلق بمثال خارج التجربة ، وباستمرار ، يحال الصراع خارج التجربة ، فالصراع سابق عليها او ناتج عنها . انه محكي عنه بلغة الكاتب التي تتوزع على لسان شخصيات . ويمكننا ان نعد مسرحية « عمار يبحث عن ابيه » صوت المؤلف وحده متوزعا على اشخاص او على وجوه مختلفة للصوت الواحد .

ومن نتائج هذا الامر غلبة المستوى اللغوي الواحد على الكتابة المسرحية ، فالجميع يتحدثون بالقوة نفسها والفصاحة نفسها ، ويتقارعون وكأنهم في ندوة او منبر ثقافي متخصص .

وكما قلنا ، لقد كان واضحا في كتاباته المسرحية على وجه الخصوص وعي الذات مندغما في وعي التاريخ نحو مجاوزة السقوط في الحياة العربية ، فنموذجه المسرحي يتجاوز راهنه الشاخص للعيان في رحاب يقظة ذاتية تحاول ـ ما وسعتها المحاولة ـ الاحاطة بمعاينة العطب وعناصر البناء في الذات ، سبيل المرء الى الحرية . وكأن هذه المعاينة تحمل شروط الوجود يصنبه الكاتب على الورق كما يراه ، على ان هذه الرؤيا تظل تحمل حطام الراهن وحطام الروح فتجتمعان او تختلفان ؛ وهكذا لا تسلم كتابة صدقي اسماعيل المسرحية من تنازع وحدة التأثير نتيجة هذه الرؤيا .

هوامش واحالات :

(١) المؤلفات الكاملة لصدقي اسماعيل ، المجلد الخامس ، دمشق ١٩٨٢ . انظر مقدمة انطون مقدسي : « صدقي .. ذلك المجهول » . ص ١٦ .

(٢) نفسه ـ ص ٢٧١ . ونكتفي في الشواهد التالية برقم الصفحة اثناء السياق .

(٣) يستخدم صدقي اسماعيل المصطلحين،وهذا التداخل من دواعي النزوع الوجودي.

(٤) اشتهر نجيب محفوظ في روايته « الطريق » بالبحث عن الاب ، وتبعه كتاب آخرون بحثا عن أم او اب ترميزا او تعبيرا عن صلة بالاصول او الجذور او المعنى او الحياة بشكل عام .

(٥) ارتبط اسم اوفيليا لدى كثيرين من نقاد المسرح بمكانة الشخصية المسرحية وضرورتها في بناء المسرحية : انظر : طاهر ، بهاء : « ما ضرورة اوفيليا ؟ » في مجلة « المسرح » ، ع ٤٥ ـ ايلول ١٩٦٧ ـ القاهرة ـ ص ١٦ ـ ٢١ .

(٦) المؤلفات الكاملة لصدقي اسماعيل ـ المجلد الخامس ـ دمشق ١٩٨٢ . انظرمقدمة رياض عصمت ، « مقدمة لمسرح صدقي اسماعيل » . ص ١٧ ـ ١٩ .

(٧) لا يجزم المرء باشكال تبادل التاثير بين الفن والمجتمع في مرحلة معينة لا تزال قريبة العهد ، هل نداء « المطلق » العنيد عند ادبائنا نتاج عجز عن الرؤيا ، أم تعلق مثالي باهظ الثمن ، أم تفاؤلية بعيدة في انقاض الخذلان والموت والذات الباحثة عن سبيلها .

من المفيد ، ان نقارن بين « ايام سلمون » ومسرحية « الزير سالم » لالفريد فرج (١٩٦٦) التي انتهت الى صلح فوق الدماء كحل يستجيب للصراع الازلي بين المطلق والمتغير، ما دام المطلق اسير لحظة وجودية نادرة .

صدقي اسماعيل
ومدرسة اللواء

د. محسن الخير

« ان من انقطع عن امته يهبط عن مستوى انسانيته فيستحيل لهذا الهبوط الى مسخ ذي تكوين مصطنع ».

« الارسوزي »

« العروبة قبلة احلامنا ومصدر مقدساتنا ، عنها تنبثق المثل العليا وبالنسبة اليها تقدر الاشياء » هذه هي مدرسة اللواء التي قاد نضالها الاستاذ زكي الارسوزي واغنى تراثها صدقي اسماعيل وانشد اروع الحانها سليمان العيسى وترك علامات على مسيرتها الدكتور وهيب الغانم ، وادهم مصطفى وفائز اسماعيل الذي يذكر في كتابه البدايات الكثير من ابنائها من امثال محمد غريب وابراهيم فوزي وعلي محسن زيفا ونخلة ورد وصبحي زخور وغيرهم وغيرهم لانه كما يعتقد ان الرسول العربي كان قويا بصحابته والمسيح بتلاميذه وكذلك الارسوزي برفاقه واخوانه ...

يقول صدقي اسماعيل :

يا من سالت عن العروبة قد سالت عن المتاعب
عن بقعة سلبت من الوطن الكبير واي سالب

ولكنني لا ازيد ان تجاهل درب العروبة ومتاعبها واقرارا للحقيقة والتاريخ ان مدرسة اللواء رافد حقيقي واساسي لمسيرة البعث العربي الاشتراكي ... كما ترفد عين الفيجة بردى لتزهر غوطة دمشق ، وبساتين هشام بن عبد الملك ، وشجيرات الاسد ، على ذرى جبل قاسيون ...

* * *

ـ لقد اغنى صدقي اسماعيل مدرسة اللواء والمدرسة العربية بالتراث الفكري الواسع والمتنوع الذي تقدم من خلال المعاناة الحقيقية للتجربة العربية بكل اصالتها واهتزازاتها وستبقى مؤلفاته وعطاءاته منارة مشرقة للمفكرين الملتصقين بالجماهير وقيمها الانسانية من ذوي النفوس الخيرة والكريمة .

لقد كان صدقي اسماعيل يعتقد مع طرفة ، والمتنبي ، والارسوزي ، ان العربي يجب ان يكون صرخة تمرد في وجه الزمن ، سيدا على الظروف ، يحقق اصالة امته ، ويعيش من اجل قضيته ، وأن ما هو اثمن من الحياة نفسها نبل الحياة وقيمها الانسانية ، وصورها المثلى من حرية وكرامة او كما يقول صدقي اسماعيل « انه لا تقدم الا حيث تعيش القيم ولا قيم الا حيث يحمل همها ابطال ومعلمون وقادة شعوب » .

يقول الارسوزي : تلك هي الحياة قيمتها باغراضها لا بطول بقائها واي مسعى يرفع بالنفس الى الآفاق الرفيعة اكثر من المسعى الذي يجعل كلامنا امرا ذا وزن في مصير العالم » .

هذه مدرسة اللواء التي شاركت في مجمل النضال القومي للجماهير العربية في مشرق الارض العربية ومغربها ... وأرخت الاحداث شعرا ، ونثرا ، وملمتيشيات ، وكلبيات ، نسبة الى « جريدة الكلب » التي كان يصدرها صدقي اسماعيل ومن حكمها الشهيرة :

ذنب الكلب دائما معووج ... ان خير القراء من لا يضوج

ويقيمها العماد مصطفى طلاس قائلا :

الكلب يعرف اننا منذ الصبا ... كنا له من انشط القراء
ولذاك قرننا اخيرا طبعه ... مازال في الازمات خير عزاء
والفن أقوى ما يكون اذا مشى ... فوق السواد بنكتة زهراء
رغم انشغالي بالدفاع يظل لي ... وقت لكل خريدة عصماء

* * *

نشد صدقي اسماعيل البراءة والرصفاء ، والبساطة في السلوك ، والعفوية في النزعة ، والصدق مع النفس ، والصفاء ، كان يراه اينما كان في اللواء او باريس .

لنسمع انطباعاته :

وشهدنا في « السكريكور » حشودا ... كلها اصبحت من الهيبيز
وهي اصلا كنيسة كنسوها ... من صفاء المسيح والادسوزي

الا ان صدقي اسماعيل كان يعتقد ان ثمة تقاليد تشمل مجال الحياة يجب ان تحطم ، وان ثمة عقبات مظلمة يفترسها النفاق والكذب ينبغي ان تحرق بضياء الحقيقة ، وبذلك يحمل التهديم معنى الثورة والثورة بالنسبة اليه عودة الى البراءة والطبيعة في حياة البشر ، وان الذين يثورون لانهم حاقدون ليسوا ثوارا فالغضب لا يصنع الثورة وانما تترعرع الثورة وتنمو في ظلال الحب .

ويغني سليمان العيسى هذا المفهوم ويؤكده باسم العروبة في اللواء

يقولون مايحمل الثائرون قصارى العزيمة ان تهدموا
فشدوا بتاريخنا طرفهم وقولوا اجل اننا نهدم
وهل يلمع الفجر الا اذا تساقط نور الدجى المعتم
لقد عرف البيت نور الاله على صوت اصنام تحطم

★ ★ ★

لقد شارك صدقي اسماعيل مسيرة البعث منذ البدايات ، وفي البدايات فان هناك اهتمام في الثقافة العامة والحزبية بشمولها القومي والانساني فكتب ونشر من التراث العربي وشارك بالتعريف في الثقافة العالمية وكان يعتقد «ان قضية الاديب هي قبل كل شيء ان يحسن التعبير عن تجارب انسانية اصيلة ، ان يضيف اشياء جديدة الى تراث امته الادبي ، ونقطة البداية ان يعطي انتاجا جيدا » .. وحقق صدقي اسماعيل هذه المقولة فترك لنا انتاجا عربيا انسانيا رائعا ...

نعم لقد تأثر صدقي اسماعيل في مدرسة البعث ومفكريه وادبائه الاوائل وكانت مباريات بينهم من اجل الكتابة ، والعطاء الفكري ، وكان هناك قاسم مشترك بينهم ، انهم مع القومية ومع الانسانية ، وارادوا ان ينقوا هذا الموضوع ويبعدوا عن القومية العربية ما علق في الاذهان ومن خلال االتعصب القومي ، والتجربة التي حدثت في اوروبا مما ادى الى اعتبار البعض ان القومية تقود الى خيانة معسكر السلم والديموقراطية والاشتراكية .. الا ان صدقي اسماعيل على غرار المفكرين اللوائيين كان يرى باتخاذ المفهوم القومي محددا لمظاهر الحياة العامة يمهد السبيل لنمو شخصية كل المواطنين .

كما ان المدرسة اللوائية ترى ان الشعور القومي ليس حادثا طارئا عندنا نحن العرب اوحته الينا الظروف التاريخية الراهنة حتى ان النبي

محمدا وهو الذي نقل نبرة الايقاع في حياة العرب من الرابطة بين ذوي القربى الى رابطة الايمان المشترك تظهر عنده العاطفة القومية في ابلغ مظهر وهل ادل على قوة صوت الاجداد او الداوي في النفس من دعوة الحق الى رسول الاسلام بهذه الآية « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام » .... وركزت هذه المدرسة القومية على الحرية وان الحرية ثمرة تتوج بها الحياة الانسانية ويفوز بها المواطنون اذا انتظمت حياتهم الاقتصادية وان الحياة والحرية صنوان وان الحرية والانسانية تتلازمان وعلى تلازمهما تقوم القيم الاخلاقية الفنية ...

يقول صدقي اسماعيل :

« ان التمرد الحق في حياة الشباب هو الذي ينعتق من ظلام القلق والضياع والريبة ، ويلتمس الخلاص في انبعاث القيم الانسانية الراسخة التي صنعتها الامة من خلال تجاربها البعيدة .... واي مصير كان لينتظر الانسانية لولا هذه المشاعل التي نرمز اليها بالقيم ... لقد قال اعرابي للص الذي سرق جواده لاتخبر احدا بذلك لئلا يضيع عرفان الجميل بين الناس لان خسارة الجواد لن تصيب الاالاعرابي اما خسارة المروءة والشهامة والنبل والكرم فتلحق بجميع الناس ...

نعم لقد عشق صدقي اسماعيل التمرد وكان يعجبه من كل شخصية عربية الجانب المتمرد فيها ومن هنا اعجب بالمتنبي لانه راى كل مايحيط بالعربي كابوسا مرهقا وسدا قاسيا يريد ان يخنق هذا الينبوع النقي فثار على كل ماهو غير الفرد وحمل نفسه عبء تحرير قدمه ورفع الحواجز التي تقف بينهم وبين الفعل المبدع ...

وبنفس الروح كتب عن المناضل محمد على القابسي مؤسس النتا باشا التونسية والذي كان شعاره « ان نفتح في نفوس العمال الكادحين مسالك يسيرون فيها الى نور الحياة ، ارى اني مسؤول عن هذا امام ضميري اكثر من كل احد لا لاثيرهم على الناس بل لاثيرهم على انفسهم » ...

كما راى في « صبيحة ملكة قرطبة » معنى التمرد من اجل المسؤولية لتصبح قرطبة قوية قادرة على صد هجوم الاسبان ولكنها تموت وامام عينيها اشباح كارثة سوداء تحل بالاندلس بعدها ...

ولكن طرفة بن العبد كان انسب نموذج الى شخصية صدقي اسماعيل لنسمع صدقي يحاور طرفة « هل هناك ماهو اثمن من الحياة نفسها !! أجل هناك نبل الحياة .. ان الحياة تقدم لنا صورا جميلة سامية عنها كثيرا مانسميها قيما ومثلا عليا ، ومن أجل صيانة هذه الصور النبيلة يجب على الانسان ان يضحي بكل شيء حتى بحياته الراهنة ... على هذا النحو يقبل البطل على ارض الموت راضيا مغتبطا بمصيره الدامي .. انه زائل اما المثل الاعلى فهو ابدا حي ، ان حياته رغم كل ماتحمل من قدسية وغنى ليست الا شيئا عابرا امام قيم الحياة وصورها المثلى لان حياة الاجيال القادمة وازدهارها وتساميها ستكون ثمرة لهذه القيم ... على الانسان أن يضحي بكل شيء لكي يعيش كما يريد بملء حريته .. ان هذا وحده يتيح لما في نفسه من فضيلةونبل انيتفتح وينمو ... وهل من هدف اسمى للانسان من ان يضيف مابنفسه الى الحياة من ان تتفتح امكانياته الحقة لتؤمن تقدم الانسان وازدهار حياته ... »

لقد كان صدقي اسماعيل دائما مع الفرد والجماعة بالنسبة اليه هي البيئة التي تحقق عبقرية الفرد والبيئة التي لا تسمح بتفتح عبقرية الفرد هي بيئة مريضة وغير صالحة .. ولهذا كان متمردا على الواقع العربي وكان يحلم بالغد الافضل لاقامة مجتمع يمكن ان يحرر العربي من كل قيوده المادية لكي تنطلق عبقريته ابداعا وحريته انطلاقة خلاقة للانسانية جمعاء.

كان صدقي اسماعيل متعدد المواهب كان مفكرا عميقا ، واديبا كبيرا ، وشاعرا موهوبا ، اثر وتأثر بالمدرسة اللوائية الا انه تبقى لصدقي اسماعيل شخصيته الفذة المميزة وأريجه الخاص ..

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي

لجنة من هانوي

الأدب الفيتنامي



الجزء الرابع

ترجمة
عبد المعين الملوحي

شعر

من أوراق الملك المتشرّد

محمّد الطوبجي

قصة

اللص رغماً عنه

قصة: حنّا مينه

قصص

محمّد كامل الخطيب

شعر

من أوراق الملك المتشرّد

محمّد الطوبجي

أُسجلُ جرحي على العُشْبِ والوجع الأبدي.
أنا الملكُ المتشرّدُ
يمْنحني موْسمُ السكْر تيجانَةً ..
وصلْبانَةً ..
غدي مشْتلٌ طاعنٌ في اشْتهاء الرخام
وأوّلُ عمْري اندلاع الأناشيد

في الفجر والطعنة القادمة ..

فأعرفُ أني أموتُ على ضفة العشق يوماً ،

ويوماً أموتُ على خنجر الماء متَّهماً باشتعال الحمام ..

أنا الملكُ المتشرّدُ

أحلمُ أني أسيرُ على ترف الياسمين

تتوّجُني طلقةُ الوردِ من كفِّ أُمّي ..

وتطلق زغردة العرس

ثم تباركني عاشقاً طوّقتْهُ مواعيدُ ليلى .

وحين تضمُّ جبيني إلى صدرها

وتفتح قلبي على يدها

ترى طفلها المتسكّع يفضي لها

بالذي يسكبُ النار بين الضلوع

بأرصفة الغربة البائسة ..

إلى أيْنَ أنحازُ أوْ أتوَهَّجُ في دوْرة الحُلْم والمشْتهى
باسْمكِ السوْسَنيّ الجميلْ ؟
عنيفٌ هو الشوْق بيْن دمي
ويديكِ المرصَّعتيْن بالضوْء ..
هذا اغترابي
وهذي قناديلُكِ الموْسميّة تزْهُرُ لي
وتلوِّحُ لي في اتجاه الحقول ..
عنيفٌ هو الشوْق بيْن النزيفِ
وبيْن حرائقِهِ في الذهول ..
وجسْر القرنفل متّسعٌ للرحيل
ومتّسعٌ للمحبّين إنْ سافروا شاهرين مَباهجهمْ بالطفولة ..
أوْ شاهرين مواجعهمْ في مكابدة اليأس كالأنبياء
ومنْتشرين على مفْردات الذبولْ ..
غريبٌ وفي الصدْر مملكةٌ تسْتبدّين فيها

وأنتِ على عرْشها تحكمين ..
غريبٌ ولا أمتطي وجعي
لا أقول لكِ احتَفلي بجنُوني ..
أنا الإنتحاريُّ لي فيكِ سيّدتي
من التعَب الحلْو ،
والشغَف الحلْو ما يسكرُ القلبَ ..
فيكِ منْ روْعة اللّه ما يبْهجُ العمْر ،
إني لأُشهِرُ عشقي عليكِ
وأُغمِدُ سُكري وذاكرتي فيكِ ..
إنيّ أُكلِّم كل المصابيح في شجَر الليْل ،
كل العصَافير في ساحة القلب
عنكِ وعنْ سحركِ الأزَليّ ..

وأسْتقبلُ الوحْيَ فيكِ
أنا الملكُ المتَشرّدُ والواحدُ الفرْدُ والمتفرّدُ ..

حقلُ الأناشيد يشرق من شبق الجرح
حتى انفجار الشتول ..
أرى وجهك الحلو بين اشتهاء الزغاريدِ،
بين غياب السّنونو على وجع المزهريّة ..
يبدأ عمري على شفتيكِ المقدّستين
فأدخل أحوالَ قلبي المسافر في الماء والشوق.
تختصرين صباح المحبّين ..
إني لأشهد آيةَ جرحي على الحلم،
والعشقُ مملكتي
والقصيدة أرضُ جموحي العظيم.

(ـ القنيطرة / المغرب ـ)

قصة

اللص رغماً عنه

قصة : حنا مينه

(اللاذقية) ١٩٤٦

هذه القصة كتبتها قبل حوالي اربعين عاما ، وهي تمثل بداياتي القصصية ، وقد ضاعت مع عدد غير قليل من القصص التي كتبتها في العشرين من عمري ، ولم ابحث عنها ، مع ان النقاد ، والدارسين ، يصرون ، في رسائلهم الي ، على معرفة بداياتي ، في محاولة لاستكمال الدراسات ، والمقارنة ، وتتبع خط التطور ..

فجاة، في اوراقي القديمة ، عثرت على هذه القصة، التي انشرها لفائدة الباحثين في ادبي ، خاصة في مجال القصة القصيرة .

ح٠م

— ١ —

تقاطرت الوفود ، من هنا وهناك وهنالك ، ووقفت متزاحمة متدافعة على باب الخليفة : المعتمد بالله بن المعتضد بالله الاندلسي .

كانت تدفعها الى هذا الباب حاجات متنوعة ، وأغراض متباينة ، ولكنها ، على كل حال ، كانت تبتديء من نقطة واحدة : الشعور بالظلم .. وتنتهي الى مطلب واحد : العدل والانصاف ..

العدل .. ؟ نعم هذا ما كانت تنشده تلك الوفود ، تلك الاشلاء المهزولة ، المنهوكة القوى ، الخائرة العزم ، لفرط ما أصابها من اضطهاد وحرمان .

كانت تطلب العدل .. الا انها لم تكن لتنال منه كثيرا او قليلا ، لانها كانت جاهلة ، لا تعلم ان العدل لا ينال بالنواح والشكوى ، ولا بالتسكع والزلفى ، وان العدل لاينال بالتوسل او الرجاء ... بل بالنضال .. بالنضال الواعي العنيد ، لذلك كانت تتخبط في مستنقع شقائها ، وتتمرغ في اوحال عبوديتها وهي لاتعرف الى الخلاص منهما سبيلا .

كانت تأتي من ابعاد قصية ، تتكبد الحر والقر ، صابرة على مضض ، محتلمة على كره ، مؤملة ان تنال من لدن الخليفة خيرا وانصافا .. يكونان ثمنا لما قاسته في طريقها من آلام وأوصاب .

لكنها ، عندما كانت تعود ، منصرفة او مصروفة ، كانت تحس بغير قليل من الندم ، وبغير قليل من اليأس ، وبكثير من الضعة والخذلان .

واتفق ان كان في وفد ، مـن هذه الوفود الكثيرة رجـل يدعى السنجابي ، جاء يلتمس من المعتمد بالله ، انصافا واحسانا ..

أما الإنتصاف فمن غريمه الوالي .. الذي اغتصب ارضه ، واستباح رزقه ، وأما الاحسان فمن نعم الخليفة الكثيرة .

ولم تكن تلك وفادته الاولى . كانت العاشرة ، او مايزيد علـى العاشرة ، استطاع في بعضها ان يدخل وان يصيب شيئا يسيرا ، من هذا « الاحسان » الذي يوزع على الجياع فيسكن ثائرتهم ، اما في اكثرها فكان يرد ، ردا عنيفا قاسيا ، فلا تسمع له شكاة ، ولايسمح له حتى بالدخول ، فيعود الى امرأته وبناته خاوي الوفاض ، جائعا ، محزونا .

نشأ السنجابي في بيت عز ونعمة ، الا ان اطماع الولاة ، وشـره الامراء ، اتت على كل مايملك ، فانحدر الى الفقر انحدارا سريعا .

وكانت له ارض اغتصبها الوالي .. وكان له مال استولى عليه الامير ، وكانت له عائلة شتت شملها الظلم والاضطهاد .

لقد ورث من والده بعض الصلاح .. وهذا « البعض » كان يحمله على التماس (احسان) الملك بدلا مـن التعدي على اموال الخلـق وأرواحهم .. كما يفعل غيره من ذوي الحاجة .

الا انه في هذه المرة ، وقد طرد عن باب الخليفة طردا ـــ بعد ان لعبت ارجل الحجاب في قفاه وآكفهم في رقبته ، وبعد ان ذاق المذلة والهوان ، وسمع الشتائم والسباب ـــ شعر باحساس غريب ، لم يكن له به عهد ، هو احساس من عافت نفسه الخنوع ، احساس من مجت انسانيته العبودية ، فتطلع الى التحرر والانعتاق .

وسار السنجابي في طريقه عائدا الى منزله — عفوا — الى كوخه .. وفي نفسه تعتلج الاحزان ، وتصطرع العواطف ، وتضطرب الافكار .

لقد عرف ان الحياة لاتعطي الا بقدر ما يجاهدها على ان تعطي .. هذه حقيقة لاريب فيها ، ولكن كيف ؟ كيف يجاهد الحياة ؟ وماالعمل ؟.

وطاف على الناس يؤجرهم نفسه مقابل ارغفة من الخبز فما وجد من يستأجره .. بل لقد لقي من يعرض تأجير نفسه مقابل رغيف .. رغيف واحد .. ينقذه من الجوع ، فضحك عندئذ من غفلته وخرقه وتذكر قولا لاحد الفقهاء : عجبت لمن ليس عنده خبز كيف لا يخرج على الناس بالسيف . وهكذا عاد أدراجه وهو يردد باصرار :

— لابد منها .. لابد من حياة اللصوصية والاجرام . اذا اردت ان انقذ حياتي وحياة عائلتي من الموت جوعا .

واحس ، فجأة في مثل انقلاب اسطوري معجز ، بأنه اصبح اخطر لص ، بل اخطر مجرم ، عرفته المملكة .

— ٢ —

جلس المعتمد بالله على عرشه ، يحيط به وزراؤه وقواده ، جلسة قلقة غير عادية ، عيناه تقدحان الشرر ، ولحيته تنتفض لفرط الانفعال .

ساد المجلس صمت رهيب . واطرق كل من فيه الى الارض مفكرا .

في هذه اللحظة ، علت في الخارج ضوضاء صاخبة ، وسمعت قعقعة سلاح ، وصهيل خيل ووقع سنابك .

فتح الباب ، ودخل حاجب الديوان يقول :

ــ في الباب قائد من قواد مولاي يستأذن بالمثول بين يديه لامر هــام .

فالتفت المعتمد بالله الى الحاجب قائلا بصوت أجش فيه قســوة وجفاء :

ــ دعه يدخل ..

وماهي الا ثانية ، حتى دلف الى الديوان فارس فارع القامة ، عريض المنكبين ، وسيم الطلعة ، مدجج بالسلاح ، فانحنى بين يدي الخليفة الى الارض ، حتى اذا اذن له بالكلام قال :

ــ لقد تمت المهمة التي أوكل امرها الي مولاي الخليفة .

فبدا الاهتمام على وجه المعتمد بالله ..

ــ وأية مهمة تعني ؟

ــ مهمة القبض على (قاطع الطريق) يامولاي .

فصاح المعتمد :

ــ ماذا ؟ هل قبضت عليه ؟

ــ أجل يامولاي وسقته الى بابك حقيرا ذليلا ..

فما كان من المعتمد الا ان تناول سيفه وقال : خذا هذا .. مكافأة على بسالتك وأمانتك في الخدمة .

وانبعثت الحركة في المجلس ، وزال التجهم والعبوس .. فقد القي القبض على (قاطع الطريق) الذي روع الآمنين وأرعب المسافرين ، وتطاول حتى على اموال الدولة وقوافلها .

ولم يكن (قاطع الطريق) هذا سوى السنجابي .. ذلك الانسان

الذي دفعته حاجته الى الشر دفعا .. فافتن في التخفي والايذاء افتتانا حير الجنود وأعيا القواد .

ولم يشأ المعتمد بالله ان يمهل اللص ، فأمر بصلبه في الحال ، على قارعة الطريق ، حتى يراه الناس فيشعروا بالامان على اموالهم وارواحهم.

وماهي الا برهة وجيزة حتى كان السنجابي معلقا على خشبة ، والناس يمرون به زرافات زرافات ، فمنهم من يقف تحته ليحملق في هذا المخلوق العجيب الذي دوخ المملكة ، ومنهم من يقهقه ساخرا شامتا ثم يرميه بهجر وفاحش اللفظ ثم يتابع المسير .

ولم يكن السنجابي قد مات بعد .. فهو مازال حيا ينظر ويرى ويسمع .. ينظر هؤلاء الذين يحملقون فيه ويتدافعون لرؤيته ويرى اولئك الذين يسخرون منه ويشمتون به .. ثم يسمع كلمات هؤلاء وهؤلاء ، فيمتعض حينا ، ويتسامح حينا آخر ، حتى اذا مــل رؤية الناس ، رفع بصره الى فوق ، ونظر بهدوء الى السماء .

كان السنجابي يتألم ألمين في وقت واحد : الما جسمانيا والمانفسانيا. اما الالم الجسماني فمصدره هذه المسامير التي دقت في كفيه ورجليه فسمرته الى الخشبة .. واما الالم النفساني فمبعثه رؤية امرأته وبناته في وقفتهن الذليلة ، تحت الخشبة ، يتصايحن خلال الدموع والشهقات : من لنا بعدك في الحياة ؟ .. وفي الحق من لهن بعده ؟ من يعولهن ويرد عنهن الاذى والخوف وكيد الكائدين ؟

كانت هذه الافكار تذهب في رأسه وتجيء ، فيتوجع لذلك وجعا عنيفا ، حتى اذا ما لرأسه الى امام ، ونظر بعيونه الساهمة الغائمة الى

بناته وامرأته ، طفرت الدموع من عينيه ، فجرت على وجنتيه منهـا قطرات .. كما كانت تسيل جراحه فيجري منها ، على الخشبة ، قطرات من دم ..

انتصف النهار .. وكان قائظا شديد القيظ .. فانقطع لذلـك مرور الناس ، ولم يبق الى جانب خشبة اللص سوى امرأته وبناته .

في هذه الاثناء .. ظهر على الطريق مكاري يسوق بغلة محملة شتى انواع البضائع .. والمكاري يتجه بها نحو المدينة للاتجار .

كان اللص اول من رآه .. فطرب لذلك طربا عظيما .. حتى اذا اقترب منه ، استجمع ماتبقى لديه من قوة ، وناداه بصوت واه كسير : يا اخي ..

فذعر صاحب البغلة ، والتفت الى (اللص) : ماذا تريد ..؟

قال المصلوب : اترى ما انا فيه من حالة تستدر الدموع وتستدعي الشفقة والرثاء ؟

ــ نعم ، ارى ..

ــ اذا .. فما رأيك في عمل بسيط تقوم به .. لك فيه فائـدة كبـرى ؟

قال المكاري : ياهذا ، دعني امضي في سبيلي .. اني غير مستعد لان اصلب مكانك .

فابتسم السنجابي رغم ألمه وقد عرف ما يجول في خاطر مخاطبه ، قـال :

ــ ياهذا .. لا تخف .. انا لا ادعوك الى انزالي عن الخشبة . فهذا لا اريده .. لانني لا استطيع الهرب ..

ــ وماذا تريد اذا ؟ قل .. هيا ..

ــ أترى هذه الشجيرات القريبة ؟

فتطلع الرجل الى حيث اشار (اللص) : نعم اراها ..

ــ اذا فاعلم ان قربها بئرا غير عميقة القيت فيها مئـة مثقال مـن الذهب ، لما داهمني الشرط ، فاذا استخرجتها منه اعطيتك نصفها .. فتكسب بذلك مالا موفورا وثوابا جزيلا ..

قال صاحب البغلة وقد تحلب ريقه للربح : وبغلتي ؟

ــ اتركها هنا .. عند الخشبة .. في حراسة امرأتي وبناتي ..

ففكر قليلا ثم قال : اتفقنا .

ومضى المكاري الى البئر .. فشد حبلا الى حجر ضخم ثم ربـط وسطه بالحبل ، واخذ يتدلى . فما كاد وينزل الى البئر حتى صـاح بامرأته : هيا اقطعي الحبل !

فقطعته بأن دقته بحجر ، وسقط المكاري في البئر .

فقال لها زوجها : خذي البغلة وما عليها .. واذهبي مع بناتك لئلا يراكن احد .. فقد أمنت لكن ما يكفي معاشكن ردحا من هذا العام .

ــ ٣ ــ

جنحت الشمس الى الغروب .. وبرد الجو قليلا .. وعاد الناس الى المرور على ذلك الطريق .

كان المكاري يتخبط في قعر البئر ويصيح .. لقد فطن الى الحيلة ، ولكن .. بعد فوات الوقت .

وسمعه المارة فتراكضوا اليه ... وسعوا في اخراجه فأخرجوه .. وانتشر النبأ في المدينة .. حتى اذا بلغ مسامع الخليفة هاج وماج .. ونزل عن عرشه ثائرا فصاح بوزرائه وقواده بصوت قاصف :

أيها الوزراء .. ايها القواد .. انزلوا هذا اللص عن الخشبة وأتوني به لاراه .

فما اسرع ما انزل السنجابي عن الخشبة .. وسيق امام الخليفة موثق اليدين .

ـ ايها اللص القذر .. ايها المخلوق الشرير كيف تحتال على الناس فتسرق اموالهم وانت مصلوب على خشبة ؟

قال السنجابي للمعتمد بالله : رويدك ، ايها الخليفة ، ولا تسرف في شتمي وتحقيري .. انا والله انزه واشرف من جميع ولاتك وأمرائك وقوادك ، هؤلاء الذين يغتصبون الاموال والارزاق ، ومع ذلك يلقون الاجلال والاكرام .

فشهر المعتمد بالله سيفه في وجه اللص وقال محتدا : خسئت ايها الوقح .. اتتهجم على الولاة والامراء والقواد وأنت في حضرتي ؟

اجاب السنجابي : لا اتهجم على احد .. انها الحقيقة .. اني سرقت لاني محتاج .. أما سواي فيسرق وهو غير محتاج.. اينا أولى بالشرف؟

قال المعتمد : أمفاخرة بالعار أيضا ؟

أجابه (اللص) بهدوء تام ورباطة جأش عجيبة : لا مفاخرة ولا عاريا مولاي . اني سرقت مضطرا ومرغما .. وأي انسان يفعل ما فعلت .. حتى انت .. لو كنت محتاجا مثلي الى لقمة ، لسرقت .. ولكنت لصا ..

فظهرت دلائل الاثارة والتروي على المعتمد بالله ،ثم تحللت اساريره من قبضة العبوس فابتسم وقال : يالك من لص داهية خبيث !

قال السنجابي : مولاي ! يفعل الانسان في سبيل حياته وحيـاة اطفاله كل شيء ... ويتعلم كل شيء .. اللصوصية والخبث والدهاء .. اتظن ان هذه الآفات كانت طبعا لي ؟ كلا ، انما دفعني اليها الظلم والفقر دفعا ، فتعلمتها واقترفتها ..

ــ اذا انت تسرق لتنقذ نفسك وعيالك من الموت ..؟

ــ نعـــم .

ــ واذا اجريت عليك رزقا يكفيك وعيالك ؟

ــ لا اعود الى السرقة أبدا .

فالتفت المعتمد بالله الى وزرائه قائلا : ما رأيكم ؟ أريد أن أجرب هـذا اللص .

أجاب الوزراء : ان حكمة الاجيال علمتنا ايها الملك ان من جرب مجربا كان عقله مخربا . هذا الرجل يخدعك . وقد خدع غيرك كثيرين كان آخرهم هذا المكاري المسكين .

فأطرق المعتمد بالله لحظة ثم قال :

ــ لابد لي من تجربيه برغم حكمة الاجيال . ثم نظر الى السنجابي وقال له : اذن أمرنا بحل وثاقك وأجرينا لك ولعيالك رزقا .

قال السنجابي : ربما تتاح لي يا مولاي فرصة لا تقـاس احـدى الصناعـات .

وقد حفظ السنجابي عهده برغم حكمة الاجيال وبرغم الوزراء . وجعل ، وهو يتلقى الرزق الذي اجراه عليه الخليفة ، يمارس الصنعة في حانوت احد النحاسين .

وكان كل من يراه عاكفا على تطريق النحاس في الحانوت الصغير وجبينه مكلل عرقا يحس بأنه اصبح رجلا آخر .

قصص

محمد كامل الخطيب

١ ــ قصة طويلة ... طويلة

كل صباح كنت اراهما ، اراه هواتيا عبر الباب الخارجي للحديقة العامة بعد ان يركن دراجته ، ثم يدخل الحديقة متجها الى المقعد الذي يجلسان عليه يوميا ، وينتظرها ، وبعد حوالي خمس دقائق ، او عشرة على الاكثر كانت تأتي هي ضاحكة ، وتقعدبجانبه تتكلم ، وهو يستمع اما انا فقد كنت اتفرج عليهما من مقعدي غير البعيد عن مقعدهما ، واتذكر ايام كنت اقعد مع فاطمة في هذه الحديقة

منذ عامين وانا اعيش هذا اللقاء اليومي ، آتي في السابعة وحيـدا الى هذه الحديقة ، وهـو يأتي في السابعة والربع ، بعـده تأتي هي مستبشرة تتكلم وتضحك ، وهو يسمعها مومئا برأسه أورانيا الـى وجهها ، أو ضاحكا ، وانا اراقب ما يفعلان ، واتذكر ايام كنت الاقي فاطمة خفية في هذه الحديقة .

في الساعة الثامنة الا ربعا كانت تخرج ضاحكة مثلما دخلت ، بعدها بخمس دقائق يتجه هـو الى دراجته ، يمتطيهـا ويذهب ، وعندهـا اتحرك أنـا عن مقعدي وأذهب الى عملي ، وأنا أفكر بلقياهمـا غـدا وكأني على موعد اتفقت عليه معهما ، وكأني سألاقي فاطمة غدا .

ذات صباح ، ومنذ حوالي الشهر تقريبا ، رأيتها تمـر في الساعـة السابعة وعشر دقائق ، فوجئت بها تدخل صامتة ، وغير ضاحكة من باب الحديقة الشرقي ، الباب الذي تدخل منه كل صباح ، وتخرج عابرة الحديقة من الباب الغربي ، الباب الذي تخرج منه دائما ، ودون أن تلقي مجرد نظرة على مقعدهما وكأنها تعبر طريقها الى عملها ، وبعدها ، وفي وقته المعتاد أتى هو ، ركن دراجته عند باب الحديقة ، وقعد ساهمـا على مقعدهما اليومي .

في الساعة السابعة والنصف رأيته ينظـر في ساعة معصمه وكأنـه يسائلها عن سبب تأخر رفيقته ، بعدها رأيته يقوم واقفا ، ثم يمشي دائرا حول المقعد وكأنه يبحث عن شيء ضائع ، أو كأنه يدور حول نفسه ، لا أعرف لماذا أو كيف قمت أنا عن مقعدي ، ثم مشيت مقتربا منـه ، وللمرة الاولى أرى وجهه عن مثل هذا القرب . كان شابا في حوالـي

الخامسة والعشرين ، ذا وجه طفولي اليف حتى انني شعرت ان هـذا الشاب صديقي منذ أيام بعيدة ، وهممت بالقاء التحية عليه ، لكني لا أعرف لماذا سألته عن الوقت ! نظر في ساعته وقال « الثامنة الا ربعا » ثم عاد وقعد مرتبكا • مشيت باتجاهه ثم قعدت قريبا منه ، مقابله تماما• كان ينظر الى وجهي وكأنه يلاحظني للمرة الاولى ، بينما كنت انظر الى وجهه وكأنني أرى نفسي عندما كنت في مثل عمره منذ ثلاثين عاما انتظر فاطمـة •

بعدها لا أعرف كيف قمت عن مقعدي واتجهت اليه ، ثم جلست الى جانبه ، مكانها ، وبدأنا منذ ذلك اليوم ، نجلس على ذات المقعد ، ••• كل صباح ، نتحدث وننتظر •

١٩٨٣

٢ ـ طيران

ومثل كل مساء ، مشى في اتجاهه اليومي ، مر على دكان « أبـي علي » واشترى علبة سجائر ، دخل مكتبة « الفجر » وتناول جريدة ، ودفع ثمنها وخرج . القى التحية على رجل يعرفه . تطلع الى واجهـة دكان . وصل المقهى . كان المقهى شبه فارغ . اتتحى زاويته اليومية . على الكرسي الذي يقعد عليه منذ ثلاثين عاما . نظر عبر واجهة المقهى الزجاجية الى الشارع . كانت السيارات تعبر مسرعة . خيل اليه انـه يعرف هذه السيارات واحـدة واحدة كما يعرف تلاميذه . مـر على الرصيف الملاصق لواجهة المقهى الزجاجية أناس يعرف وجوههم . مرت امرأة تمر كل يوم في مثل هذا الوقت منذ خمسة اعوام . في تمام الساعة السادسة عبر رجل يمر في مثل هذه الساعة منذ عشر سنوات . دخل بائع متجول يبيع كرافتات وجوارب . نادى على بضاعته ، لم يشتر منه أحد هذا المساء . خرج . دخل بائع الصحف والمجلات . خرج . دخل بائع السجائر المهربة . تطلع يوسف الى الشارع عبر واجهة المقهى الزجاجية . كانت السيارات والبشر ماتزال تعبر ، عبرت سيارة خدمة سوداء صار يوسف يعرف تماما ملامح وجه سائقها . عبر رجل وامرأة معا ، ومثل كل مساء كانت المرأة تتحدث بحماس والرجل مصغ « اجال يوسف نظره عبر المقهى الذي بدأ يزدحم برواده : على الطاولة اليمنى كان « عزت بك » يقعد في زاويته منذ عشرين عاما . في أقصى المقهى يقعد « علـي السرميني » في مكانه منذ سبعة عشر عاما . قرب الباب كانت مجموعة موظفي « مديرية مالية حلب » تتحدث عن الطعام . راقب يوسف الوجوه

تتقدم باتجاه المقهى وتصل الرصيف الملاصق لواجهة المقهى الزجاجية ، وكفراشة شفافة رآها تعبر واجهة المقهى الزجاجية ، ورأى يدها تحط على كتفه « يا حبيبي لماذا تتأخر في المقهى كل مساء ؟ » رأى نفسه ينهض معها • يخرجان عبر واجهة المقهى الزجاجية •• يطيران فوق الشوارع والمقاهي والسيارات والبشر • فوق البيوت والاشجار والحقول • رأى نفسه مثلها شابا في العشرين يقف للمرة الاولى على شاطيء البحر أثناء رحلة مدرسية • كانت يده في يدها رأى نفسه يركض معها في غابات الفرلق • رآها • رأى مشيتها • قامتها • معطفها • وجهها • خصرها وجهها • راهـا راى نفسهما يطيران معا فـوق المدينة كعصفورين ، كسحابتين ، كندفتي ثلج ، كورقتين ، كحبيبين كث •••• كث ••••

ومنذ هذا المساء ، حدث تغيير جديد في حياة يوسف فقد صار يرى هذه الرؤيا ، ويطير هـذا الطيران في المقهى كـل مساء ، كـل مساء ، كل مساء •

١٩٨٣

٣ ـ مـرآة

صورة كبيرة لسعاد ، ثلاثة صفوف من الكتب ، سرير ، باقة ورد نضرة ، صورة صغيرة لفيروز ، كوب ماء على الطاولة ، مسجلة ، قنديل زيت أثري ،لعبة طفل ،ثلاث كراسات،صورة لطه حسين، مجموعةاشرطة تسجيل ، صورة محمد الـذي اغتاله الاخوان ، لوحـة زيتية لفاتـح المدرس ، صندوق خشبي مزخرف ، زجاجة بيرة ، سريره المرتب ، ابريق الشاي ، مجلة قديمة ، صورة يوسف الذي قتل في حرب حزيران ، فناجين قهوة غير مغسولة مجسم زورق اروادي ، صحن فيه بقايا عنب ، محفظة ، قميص ، شمعتان على الطاولة ، مصباح كهربائي ، مجموعـة أوراق بيضاء ، ملصق حمامة السلام لبيكاسو ، صورة لينين ، تمثال لدون كيشوت ، وآخر لزنوبيا ، علبة سجائره ، حـذاؤه ، قطعـة قمـاش ملونـة ، ابريـق المـاء ، حمالـة الصحف والمجـلات ، التلفاز ، المرآة ، الصغيرة ، بساط بدوي ، خزانـة صغيرة ، منشفة ، ميزان حرارة ، مزهرية خشبية واخرى زجاجية ، معطفه المعلق ، مدفأة المازوت ، مفتاح الغرفة على الطاولة ، صحن نحاسي أثري ، كومة كتب على كرسي ، كومة ملابس على أخرى . فتاحة كتب ، رواية جسر على نهر الدرينا مفتوحة وملقاة على السرير ، نظارة طبية للقراءة ، الغليون ، حقيبة جلدية كبيرة لحفظ الملابس ، بطانيتان ، .... ، .... ، ....
.... ، .... ، .... ، .... ، ....، .... ، .... ، .... ، .... ،
.... ، .... ، .... ، .... ، ....، .... ، .... ، .... ، .... ،
.... ، .... ، .... ، .... ، ....، .... ، .... ، .... ، .... ،

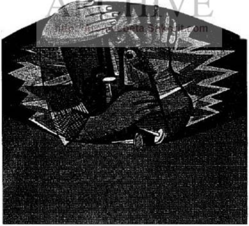
وكفتاة تلقي نظرة اخيرة على نفسها في مرآتها ، التفت يوسف في لمحة خاطفة الى داخل غرفته ، قبل ان يدفعه خارجا رجلان مسلحان ، فرأى أو تذكر كل .... كل هذا ... تذكر كل هذا ، وذهب معهم .

١٩٨٣

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي

بيير داكو

انتصارات التحليل النفسي



نظـام الأمـومـة
لـدى الأقـوام الغـابـرة

د. عـمـر الـدقـاق

الاسرة هي الخلية الاولى للمجتمعات الانسانية عبر التاريخ ، وهي النواة الاصيلة للحياة الاجتماعية عند البشر . والوالدان ، كما هو معروف ، هما عمادا الاسرة وركنا هذا البنيان الاجتماعي الصغير . غير ان مايبدو امامنا الآن بديهيا جليا لم يكن قبل قرن من الزمان على هذا القدر من البداهة والجلاء. فالحياة الاجتماعية في سالف الاحقاب لدى المجتمعات الاولى ، بخصائصها القبلية البدائية، لم تكن تقيم للوالدين عهدئذ هذا الشان المتوازن ، كما لم يكن دور ذينك الوالدين في تلك الازمان الغابرة متسما على الدوام بالتكافؤ المنشود .

وقد نشط علماء الاجتماع منذ اواسط القرن التاسع عشر الى التاريخ للاسرة الانسانية ودراسة طبيعتها ومقوماتها ، واعتمدوا في ذلك على سبل شتى ، اهمها استكناه المعالم الاثرية السالفة ، واستنطاق احداث التاريخ الغابرة ، واستيطان ما آل الينا منها من ملاحم واشعار، وعادات ومعتقدات . . . وازاء ذلك ، غدت في الوقت نفسه دراسة القبائل البدائية المعاصرة وتقصي احوالها خير رافد يعين على معرفة الكثير من شؤون الماضين وما كانت عليه حياتهم الغابرة .

وحين اصدر الباحث الالماني باكوفن J.J.Bachofen عام ١٨٦١ كتابه الرائد عن (الامومة وحق الام) بدا وكأنه احدث انقلابا كليا في مفهوم الدارسين لحياة الاسرة الانسانية . فقد كان سائدا حتى ذلك الحين ان الابوة هي اقدم نمط في كيان الاسرة عبر التاريخ ، على الرغم من انه كان معروفا في الوقت نفسه ان كثيرا من الشعوب الانسانية الغابرة ، وبعضا من القبائل البدائية الحاضرة انما تنسب الولد الى امه وتجعل الولاء لها دون ابيه .

وقد ادرك باكوفن منذ البداية خطورة آرائه بالنسبة الى الفكر السائد في عصره ، ولاحظ ما يمكن ان تنطوي عليه من غرابة ومباينة للمفاهيم المعهودة . لقد اوضح « ان فهم ظواهر النظام الاومي لا يمكن ان يتحقق الا بشرط واحد ، فعلى الباحث ان يتخلى تماما عن افكار زمانه ، وعن الاعتقادات التي ملأ بها نفسه ، بحيث ينتقل الى صميم عالم من الفكر يختلف كل الاختلاف . اذ من الواضح ان الباحث الذي يتخذ مواقف الاجيال الاخيرة نقطة لانطلاقه لابد ان يبتعد عن فهم ذلك الزمان البدائي(١) » .

وفي السنوات الاخيرة لعبت مشكلة النظام الاومي دورا متناميا باستمرار في البحوث العلمية ، بعضها يتفق مع فكرة النظام الاومي ،

(1) Myth, Religion,and Mother Right : Bachofen

وبعضها برفضها ، وتكاد جميع هذه البحوث تنطوي على الارتباط الانفعالي تجاه هذا الموضوع(٢) .

في فجر الحياة الانسانية كان الزواج عند الشعوب البدائية ينطوي على الفوضى ، اذ ليس له ضوابط تنظمه ولا شروط تقيده ، انه في حقيقة الامر نمط من نكاح الشيوع والاباحة الذي كان قوامه الاختلاط والمشاركة . وواضح انه تجاه هذا النكاح المطلق وغير المقيد لا سبيل البتة الى الاهتداء الى والد الطفل الوليد ومن ثم الانتساب اليه . ولهذا كان طبيعيا خلال تلك العهود حصر النسب في الام ، والانتماء اليها ، وجعل قرابة الرحم من خلالها هي عمدة تلك البنية الاجتماعية السالفة . « وهذا يعني انه كان للامومة فضل التقدم في المجتمع الانساني القديم(٣) » . كما استتبع ذلك ان تكون للأم سلطة وهيمنة بين الاقارب وان تحظى بأعظم احترام وارفع مقام لدى سائر افراد العشيرة . ومرد هذه المنزلة عائد بطبيعة الحال الى ان الام كانت هي الشطر المعلوم ضمن مجموعة الابوين ، وهذا ما أتاح لها هذه الحظوة في تلك الهيئة الاجتماعية Gynecekratie .

ويجنح عدد من الباحثين وفي مقدمتهم باكوفن Bachofen الى ان الانتماء الى الام كان شائعا ايضا عند العرب القدامى خلال اطوار وجودهم الاولى(٤) ، وذلك قبل أن يهتدوا الى نظام الابوة الذي يقوم على اختصاص الرجل بامرأة أو بعدد ما من النساء . وآية ذلك وجود كلمة (بطن) في اللغة العربية التي كانت تستعمل في الماضي ومازالت الى اليوم بمعنى مقارب للاسرة او العشيرة . وهذه الكلمة في راي باكوفن من بقايا عهد (الامومة) حين كانت الام عمدة الاسرة (٥) . ولهذه التسمية مثيل

---

(٢) نظرية حق الام ، اريك فروم ، ترجمة محمود منقذ الهاشمي . مجلة (المعرفة) دمشق ، شباط (فبراير) ١٩٨٣ .

(٣) بندلي صليبا الجوزي : دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب ١٢٣ .

(٤) انظر كتاب الجوزي ١٥٨ .

ايضا عند شعوب اخرى عديدة ، وبعضها كما يرى الباحث الهولندي . ج أ ، ولكن G. A. Wilken يستعمل اصطلاحا شبيها بمعنى الامومة ، وهو اطلاق اسم (الشاربين من حليب واحد) على الاقارب او من كانوا من رحم الام (٦) .

« ان المبدأ الامومي عند باخوفن هو مبدأ الحياة : الوحدة والامن . وان المرأة ، باهتمامها بطفلها تتجاوز حبها لذاتها وتمتد الى الكائنات البشرية الاخرى ، وهي تبرز كل مواهبها وخيالها لحفظ الوجود الجميل الكائن الانساني الاخر . كذلك مبدأ النظام الامومي هو مبدأ الشمول ، على حين ان النظام الابوي هو نظام القيود ، كما ان فكرة الاخوة الشاملة للانسان متاصلة في مبدأ الامومة ، ولكنها تغيب مع نمو المجتمع الابوي . والامومة اساس مبدأ الحرية والمساواة الشاملتين (٧) » .

ويبدو ان الاقتصار على رابطة الامومة كان عهدئذامرا لا مفر منه ، ومرتبطا اوثق ارتباط بنبل الطبيعة الانسانية وندائها الباطني الرفيع . في سالف العهد ـ كما يرى باكوفن ـ اي في ظل نظام الامومة كانت لدينا قانونية لا شعورية ، ومن ثم كانت الفردية . وفي السابق ايضا كان لنا الاندماج في الطبيعة . اما في المرحلة اللاحقة وتحت وطأة نظام الابوة ، فكان التعالي على الطبيعة ، وتحطيم الحواجز القديمة .

لقد حل الكفاح المرير (البروميثي) في الحياة محل الراحة الدائمة والسرور المطمئن والطفولية المستمرة في الجسد المعمر (٨) .

ان ما طلع به باكوفن بصدد أولية نظام الامومة خلال فجر المجتمعات البشرية الغابرة كان بمثابة الحجر الذي القي في الماء وسرعان ما اخذت

---

(٥) انظر كتاب الجوزي ١٥٩ .

(٦) ج. أ. ولكن هو استاذ هولندي في جامعة ليدن كتب بحثا بالهولندية في اواخر القرن التاسع عشر حول هذا الموضوع ، ثم ترجمه له الى الالمانية . وفي عام ١٩٠٢ نقله الى العربية بندلي صليبا الجوزي الاستاذ بجامعة باكو .

دوائره بالاتساع ولا سيما في الربع الاخير من القرن التاسع عشر . وكانت ملامح هذا الاتجاه قوية في آراء فريدريك انجلز التي تجلت في كتابه (أصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة) ، لقد تبنى مفهوم باكوفن وذهب الى ان تاريخ الاسرة انما يبدأ بظهور (نظام الامومة) ، كما كانت لنظرية باكوفن اصداء متفاوتة في اعمال بيبل وماركس ولافارغ . . .

ولعل اهم من اغنى هذا المجال ودابه على جلاء نظام الامومة هو عالم الاجناس البشرية الامريكي لويس هـ ، مورغان ، فقد مضى في اثر آراء باكوفن ، ولكنه اعتمد منهجا مغايرا ، وتوصل الى اثبات وجود نظام الامومة في مناطق مختلفة من العالم ، وما اتسم به هذا النظام من خصائص على صعيد العلاقات الاجتماعية والنفسية والاخلاقية والسياسية .

ان نظرة باكوفن الى تلك الحقبة من تاريخ الانسانية ومجتمعاتها الاولى مفعمة بالحنين الصوفي ومشوبة في الوقت نفسه بالمرارة والاسى لانها ولت الى الابد . على حين ينظر مورغان بثقة وامل مبشرا بمجيء مرحلة سامية من الحضارة الانسانية ، مرحلة تشهد عودة زاخرة بأسمى معاني الحرية والاخاء والمساواة التي كانت تمتاز بها الجماعات القديمة (٩) .

على ان عالما انكليزيا آخر اسمه ماك لينان Mack Lenan نحا نحوا مغايرا لنظيره الالماني باكوفن Bachofen ولم يتح له الاطلاع على كتاب باكوفن لقرب العهد بينهما (١٠) . فقد اصدر كتابا مماثلا في هذا الموضوع تناول فيه ايضا تاريخ الاسرة ، واطال خلاله الوقوف عند ظاهرة الزواج الخارجي Exogamie وقد اجرى لينان مقارنة بين هذا الزواج والزواج

---

(٧) نظرية حق الام : اريك فروم ، ترجمة محمود منقذ الهاشمي . مجلة « المعرفة » الدمشقية ، شباط ١٩٨٣ ص ٩١ .

(٨) وانظر بحث : نظرية حق الام بقلم اريك فروم ترجمة محمود منقذ الهاشمي مجلة « المعرفة » الدمشقية ، شباط (فبراير) ١٩٨٣ ، ص ١٠٠ و ١٠١ .

الداخلي Endogamie . وكان مما استرعى نظره خلال دراساته ان ثمة شعوبا وقبائلي ، سواء اكانت متقدمة ام بدائية ، ما زالت حتى هذا العصر الحاضر تمارس عادة اجتماعية يظن انها متوارثة عن الاسلاف في غابر الدهور ، وهي أن الخاطب (او رفاقه عند بعض الاقوام) يتظاهر باختطاف فتاته عنوة من بين اهلها وعشيرتها . وهذه العادة ما زالت شائعة لدى بعض قبائل الشركس في بلاد الشرق . .

ثم خلص (لينان) من هذه المقارنة الى القول بنظرية سيادة الزواج الخارجي لدى الجماعات البدائية القديمة ، غير انه خرج من ذلك باستنتاج غريب ، حين علل ظاهرة اللجوء الى الزواج الخارجي قديما ـ أي من خارج الاسرة او القبيلة لا من الاقارب ـ بأنها نتيجة لتفشي عادة وأد البنات اللائي يولدن من امهاتهن ، اذ ان تفاقم هذه العادة في زعمه قد ادى الى اختلال التوازن الطبيعي بين عدد الرجال وعدد النساء لدى الجماعة الواحدة ، فطغى الذكور وقلت الاناث ، وانه نجم عن ذلك اضطرار عدة رجال عهدئذ الى مجامعة امرأة واحدة ، وكذلك الاغارة على القبائل الاخرى وسبي نسائها واغتصابهن تعويضا لذلك النقص . وهذا في رأي (لينان) أصل تعدد الازواج ومن ثم أصل الولاء للام والانتماء لها، لاستحالة الاهتداء الى أبي المولود ، وانه كان من جراء ذلك نزوع الجماعات البدائية القديمة الى اعتماد قرابة الام دون الاب .

وأكثر الباحثين الاجتماعيين لا يجارون (لينان) في هذا الاستنتاج ، فالعالم الاميركي مورغان Morgan من خلال كتابه « المجتمع القديم » يعتقد ، كما اعتقد قبله الالماني باكوفن Bachofen ، ان سيادة الزواج الخارجي دون الداخلي في حقبة من مدى تطور الجماعات البشرية لم يكن قط ناجما عن عادة وأد البنات ولا طغيان الرجال على النساء ، بل كان

---

(٩) نظرية حق الام ، اريك فروم ، ترجمة محمود منقذ الهاشمي . مجلة المعرفة الدمشقية ، شباط (فبراير) ١٩٨٢ ، ص ١١١ .

(١٠) ظهر كتاب مالك لينان سنة ١٨٦٥ اي بعد ٤ سنوات من ظهور دراسة باكوفن الرائدة واسمه : Studies in Ancient History Primitive Mariage 1865

في الحقيقة تحاشيا من قرابة النسب لدى الاقارب وتجنبا لاختلاط الدم وهزال النســـل ...

ومن ناحية اخرى بوسعنا القول ، بالاضافة الى ما تقدم ذكره ، ان عادة الوأد كانت موجودة على الارجح في حدود ضيقة ولدى قبائل معينة . والمنطق يقتضي حتى في حال وجودها الا يدوم امدها لانها تهدد وجود القبيلة نفسها بالاضمحلال والانقراض ، ولو عملت بهذه العادة ســائر القبائل ، ولاماد طويلة ، لتأثر تيار النسل ، ولما كان التكاثر المطرد في الجنس البشري . وهكذا فان كون الوأد عارضا وفي نطاق محدود ، فانــه لمن المستبعد ان يغدو هذا سبب إيثار الزواج الخارجي فيما سلف من العهود . وفي اعتقادنا ايضا ان كل المعطيات التاريخية تشير بجلاء الى العكس من ذلك ، اي الى تضاؤل عدد الرجال بالنسبة الى النساء نتيجة مصارع الكثيرين منهم خلال حروبهم المستمرة وغزواتهم المتوالية ، حتى ان تعدد الزوجات كان له ما يبرره في احوال كثيرة . ومثل هذا النقص في الرجال حدث لدى العرب في العصر الجاهلي ، ويبدو انه حدث ما يقاربه في فجر الاسلام بسبب كثرة الغزوات والفتوحات وحروب الردة والفتن والثورات .. ولعل من أبرز الامثلة على تلك الظاهرة المتكررة في تاريـخ البشر ذلك النقص الذريع الذي منيت به شعوب اوربا الغربية خـلال هذه العصور الحديثة في عدد الرجال ، ولا سيما من الفرنسيين في عهـد نابليون ، ثم من الالمان في عهد هتلر ... وهذا ما اورث الشعبين مآسي اجتماعية جمة ..

ولا بد من الاشارة في هذا الصدد الى زواج المتعة الذي كان معمولا به في الجاهلية ثم اقره الاسلام الى حين (١١) بنتيجة ظروف مرحليـة طارئة . فهذا الزواج يمكن ان يعد من مظاهر بقاء نظام الامومة الســالف

---

(١١) ثمة خلاف بين اهل السنة وشيعة المسلمين حول هذا الموضوع ، اذ يعتقد اهل السنة ان عهده انتهى بعد فجر الاسلام .

الذي يعد اثبت من نظام الابوة في تلك الاحوال ، وذلك بالنظر الى الصلة العارضة للرجل أو لعدد من الرجال بالمرأة الواحدة ، ويؤكد ذلك ما افتى به علماء الشريعة في الفقه الاسلامي حين قرروا على انه : لا ميراث في زواج المتعة ، اي لا ميراث عن طريق الاب .

وثمة دلائل عديدة في تاريخ العرب ولغتهم ما زالت تشير الى بقايا نظام الامومة السالف العهد . وفي راي المستشرق « نولدكه » ان بعض قبائل العرب ظلت في الجاهلية وما بعد الاسلام تنتمي الى امهاتها ، مثل بني خندق (١٢) . وهذا ما ذكره المؤرخ ابو الفداء (١٣) حين اوضح ان هؤلاء كانوا ينتسبون الى امهم بدلا من ابيهم . ومثلهم بنو مزينة وغيرهم ...

كذلك ينطوي تراث العرب على امثلة اخرى تؤكد هذه الظاهرة . وكثيرا ما تتحدث كتب التراجم عن اولئك الذين نسبوا الى امهم من الشعراء أو العلماء ، فصاحب كتاب (المزهر (١٤)) يخص بعضهم بفصل سماه « من نسب الى امه من اللغويين والنحاة » ، فيذكر منهم : محمد من حبيبة (وحبيبة امه) والاشهب بن رميلة ... ويقول ابن سلام الجمحي في صدد ذلك أن رميلة هذه هي امه ، واسم ابيه ثور احد بني نهشل بن دارم ، كما يقول خلال ترجمته لشبيب بن البرصاء ان هذه هي امه ، وابوه يزيد بن حمزة (١٥) . ويترجم ابن سلام ايضا للشاعر يزيد بن الطثرية بقوله (١٦) « هي امه ، وابوه هو المنتشر احد بني عمرو بن سلمة بن قشير ، والطثرية حي من قضاعة يقال لهم طثر ينسب

(١٢) كتابه :
Geschickte der per set und Arberzeit der sassaniden , 170

(١٣) المختصر في اخبار البشر ، ص ١٩٦ طبع فليشر وانظر في هذا الصدد : المقريزي ص ٩ ، الطبعة الاوربية .

(١٤) جلال الدين السيوطي : المزهر في علوم اللغة ٢ : ٤٤٦ .

(١٥) انظر كتاب المزهر ٢ : ٤٤٦ .

(١٦) المزهر للسيوطي ٢ : ٤٤٦ .

اليها » . كذلك ينقل جلال الدين السيوطي (١٧) عن كتاب (التهذيب) للتبريزي ترجمة سويد بن كراع العكلي ، ويبين ان (كراع) هو اسم امه ، فلذلك لا ينصرف بسبب العلمية والتأنيث في لفظه ، واسم ابيه عمير . . .

وفي مؤلفات العرب الاقدمين ذكر كثير لعلماء بعينهم كانوا عارفين في الانساب ، انساب الرجال والنساء ، ومن اشهرهم ابو عبيدة معمر بن المثنى وابو زيد الانصاري والاصمعي . . . وقد امتاز آخرون من بين هؤلاء ببراعتهم في انساب الامهات . وقد ذكر الجاحظ « ان عقيل بن ابي طالب كان ناسبا عالما بالامهات » ، كما ذكر ايضا « ان ابا الجهم بن حذيفة العدوي كان ناسبا شديد العارضة ، كثير الذكر للامهات بالمثالب (١٨) » .

ومن جهة اخرى توجد اخبار جمة في كتب الادب عند العرب تجعل في جملتها للاخوال منزلة رفيعة ، من هذا القبيل ما نقله صاحب كتاب العقد الفريد من امر عمرو بن الاهتم والزبرقان بن بدر في حضرة الرسول عليه السلام ، وكانا على جفوة وخلاف . وقد وصف الزبرقان صاحبه بانه « ضيق العطن ، احمق الولد ، لئيم الخال . . . (١٩) » . كذلك ذكر الطبري ان الخليفة العباسي ابا جعفر المنصور كان ينوي الزواج من امرأة تغلبية . ثم تروى في الامر وعدل عن بغيته وقال : لولا بيت قاله جرير في بني تغلب لتزوجتها (٢٠) ، وهو قوله (٢١) :

لا تطلبن خؤولة في تغلب فالزنج اكرم منهم اخوالا

(١٧) المزهر للسيوطي ٢ : ٤٤٦ .
(١٨) البيان والتبيين ، طبعة السندوبي ١ : ٣٢٧ .
(١٩) احمد بن عبد ربه ، العقد الفريد ١ : ١٤٤ .
(٢٠) تاريخ الامم والملوك ٣ : ٣٦٢ .
(٢١) البيت في ديوان جرير ٤٥٣ ، وايضا في كتاب الكامل ٥١٤ وفي البيان والتبيين ٣ : ٣٩٩ وفي رسائل الجاحظ ، فخر السودان على البيضان ١ : ١٩٠ .

كذلك داب شعراء الفخر على التباهي بأخوالهم على الصعيد القبلي اعتدادا بكرم اصلهم ، ومن هذا القبيل قول حسان بن ثابت (٢٢) :

ان خالي خطيب جابية الجو   لان عند النعمان حين يقوم
وهو الصقر عند باب ابن سلمى   يوم نعمان في الكبول مقيم

ومثل ذلك معهود في اخبار العرب واشعارهم ، ولا سيما في اغراض المديح والفخر والهجاء . وكان الرجل الامثل لديهم هو المعم المخول ، اي الذي اجتمع فيه شرف الاب والام ، او شرف الاعمام والاخوال .

وفي اقوال فصحاء العرب ما يشير الى انهم كانوا احيانا يؤثرون ذكر الام على ذكر الاب في معرض كلامهم ، سواء كان ذلك في شعرهم ونثرهم . وقد اورد الجاحظ عبارات من وصية المهلب لبنيه اذ قال (٢٣) : « يا بني ، تباذلوا تحابوا ، فان بني الام يختلفون .. » . وقد ترد هذه النسبة في معرض الازدراء او الاستخفاف او التجاهل دلالة على ان الانتماء الى الام هو الامر البين وليس الى الاب ، ولعل هذا ما ورد في الخبر التالي ، اذ كتب الحجاج والي العراق الى قطري بن الفجاءة راس الخوارج الذين ثاروا على بني امية : انك مرقت من الدين مروق السهم من الرمية ، وانك عاص لله ولولاة الامر .. فاجابه قطري : لعمري يا ابن ام الحجاج ، انك لمتيه في جبلتك ... تعرف الله ولا تجزع من خطيئتك .. (٢٤) » .

وان في لجوء فصحاء العرب الى ربط مناداة المرء مقترنا بأمه دون ابيه ما ينطوي على الصفة الصميمية ، كما يعني لديهم الاتسام بالاصالة . وهذا المنحى معهود لديهم منذ سالف ازمانهم ، ومتوارث في اساليبهم

(٢٢) كتاب البيان والتبيين ، الجاحظ ، طبعة السندوبي ٣ : ٣٧٥ .
(٢٣) كتاب البيان والتبيين ٢ : ٢١٥ .
(٢٤) كتاب : البيان والتبيين ، الجاحظ ٢ : ٣٥٠.

حتى حاضر أيامهم ، وذلك منـذ أن قال الشنفرى رائعته في العصـر الجاهلـي (٢٥) :

اقيموا ، بني امي ، ظهور مطيكم فاني الى قوم سواكم لاميل

الى أن قال ابو القاسم الشابي بعد نحو خمسة عشر قرنا :

يا بني امـي ، تـرى ايـن الصبـاح
أوراء البحـر أم خلف الوجـود
يا بني امـي تـرى أيـن الصبـاح ..

وكما كان العرب في الماضي يولون الخؤولة منزلة رفيعة في حياتهم الاجتماعية ، فانهم ظلوا يتوارثون هذه المفاهيم السالفة حتى الازمنـة الحاضرة ، فهم الى الآن يعولون على أشقاء الام في صدد تقويم نسب المرء وطباعه ، وهم ما زالوا يعتقدون كأسلافهم ان الولد اذا كان فاسدا فثلثا فساده ساريان اليه من خاله والثلث الاخير ناجم منه ، والعكس ايضـا صحيح . وشائع ايضا في أوساط العرب المعاصرين قولهم : « ان الولد اذا بار فثلثاه للخال (٢٦) » . حتى ان الموضوع يكتسب كثيرا من الجـد في صدد الخطبة والزواج ، فالتدقيق في اهل الام واخوتها واخواتها ... يشغل حيزا كبيرا في افكار الناس ، اذ ان ظهور اي صفة شائنة في بعض هؤلاء الاقربين من بعيد او قريب يعد سببا كافيا لنقض كل ما سبق القبول به والتفاهم عليه .. والناس في ذلك يطلقون امثالا شعبية متعددة تؤكد

(٢٥) هذا البيت مطلع قصيدة الشنفرى المعروفة باسم لامية العرب .

(٢٦) لعل كلمة بار محرّفة من الفعل بر ، اي اذا بر الولد اي كان برا او بارا ... ولعلهم مدوا الحرف ليقارب ايقاع كلمة الخال بعد ذلك .. وهذا من قبيل ما يسمى الاتباع وهو معروف في لغة العرب وما زال شائعا في العامية العاصرة مثل : كذا مذا ، كان مان ...

مفاهيمهم في هذا الشأن ، من مثـل قولهم : « الاصيل يخول » . كما يتناقلون بينهم هذا الحوار الطريف : قيل للبغل : من ابوك ؟ فأجاب : الفرس خالي . كما سئل احدهم عن أبيه فقال : خالي شعيب . .

كل ذلك وسواه ينطوي على الاهمية السالفة والراهنة معا للنسب الوشيج بين ابن الاخت والخال ، وينبىء عن أن هذا من بقايا الولاء للام حين لم يكن في سالف الازمان للاب اهمية تذكر ، كما لم تكن بين الاب واولاده آصرة رحم قوية ، فكان الخال اقرب الاقارب الى الاولاد بعد امهم . وانطلاقا من هذا الوضع افتى الفقهاء في الاسلام بحكم الشريعة ، في حال تعذر الاهتداء الى ابوة الولد ، بان الولد يتبع الرحم ، او ان الولد للفراش .

وهكذا بات من الثابت في علم الاجتماع وفي علم الاجناس البشرية Anthropologce أن نظام الامومة (قرابة الام) اقدم عهدا من نظام الابوة .

وخلال تطور مديد سالف ، ظهر على هذا الصعيد بعد ذلك نظام الابوة عند العرب ، ثم ساد بينهم ، حتى بالغوا فيه واولوه عناية كبرى . وكان أن ازدهر لديهم علم خاص امتازوا به دون سائر الامم ، وهو علم الانساب . وللانساب في حياة العرب الاجتماعية والسياسية شأن ، وأي شأن .

مشكلة الأمن الغذائي العربي إلى أين ؟

د. ناصر الناصر

لا شك ان معدلات تكاثر السكان في العالم مرتفعة ، وهي حقيقة معروفة ولا تقبل النقاش ، ولكن يبقى الامر الذي لا يزال يشكل مثار جدل ونقاش هو عدم كفاية الخيرات المادية التي تتطور بمعدلات اقل من نمو السكان ، تلك الظاهرة التي نبه اليها القس الانكليزي مالتوس الذي نشر في عام ١٧٩٨ كتابا تحت عنوان « دراسة حول قانون السكان » بين فيها ان السكان يتكاثرون وفق متوالية هندسية ١ ، ٢ ، ٤ بينما تتزايد كمية وسائل العيش وفق متوالية حسابية (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) ويصل مالتوس الى استنتاج : ان نصيب كل انسان من وسائل المعيشة يتناقص مع الزمن ، وسيشكل ذلك السبب الجذري للبطالة والجوع والبؤس ، بل سيشكل سبب انتشار الامراض والاوبئة واندلاع الحروب وربما ايضا وقوع الزلازل والكوارث ، لان الطبيعة ستباشر مهمتها باعادة التوازن المفقود بين عنصرين من عناصره : السكان والموارد(١) .

(١) للتفصيل راجع كتاب الدكتور عارف دليلة : الاقتصاد السياسي ص ٤٠١ .

ولم تلق افكار مالتوس قبولا ، سيما فيما يتعلق بآرائه في اعادة التوازن للطبيعة غير الكوارث والحروب .. الخ ، وقلل من شان هـذه النظرية الاكتشافات التي حصلت في القرن الماضي ، حيث تم اكتشاف مناطق واسعة ، مكنت من زيادة الانتاج ، بل نائض في الانتاج ســاهم في تخفيف الفجوة الحاصلة بين نمو السكان ونمو الخيرات المادية .

اما اليوم فان الزيادة الهائلة في عدد السكان والمصحوبة بتحول عـدد لا بأس به من الدول من مجتمعات زراعية الى مجتمعات صناعية ، كما حدث في اوربا الغربية ، فان المشاكل الناجمة عن زيادة السكان ونقص معدلات الانتاج ، اخذت تحظى باهتمام الباحثين والمختصين وبالطبع هناك اسباب تكمن وراء زيادة تكاثر السكان ترتبط بـ :

ـ تحسن وتطور الصحة العامة : فالتقدم العلمي والتكنولوجي اتاح للبشرية امكانات كبيرة لمعرفة اسباب انتشار الامراض ، فتم مثلا اكتشاف البعوض الناقل للملاريا وتم اكتشاف علاج له ، فتحولت هذا المرض من مرحلة الخطر الى مرحلة عدم جدواه كما ساهم انتشار التعليم والرعاية الصحية مـن تقليل اخطار العديـد مـن الامـراض كالديسانتريـا والبلهارسيا ... الخ .

ـ برامج التغذية العالمية التي تؤدي احيانا مهام نقل كميات مـن الاغذية الى المناطق التي تجتاحها الكوارث الطبيعية والمجاعة ، مما ساهم ايضا في تخفيف عدد الوفيات التي كانت تحدث سابقا .

ـ الاطاحة بنظام المستعمرات الاستعماري فقد كانت الدول المستعمرة (بالكسر) تنهب وتعرق خيرات وثروات الشعوب ، فعندما انتزعت حركات التحرر الوطني استقلالها السياسي بدات تسخر ثرواتها الوطنية في خدمة مواطنيها ، مما ساهم ذلـك في تحسين المستوى المعاشي وفي تخفيض معدلات الوفيات في معظم الدول الفتية المتحررة حديثا .

ان زيادة معدلات التكاثر السكاني ، كان يفترض ان ترافقها نفس معدلات النمو من الموارد الطبيعية ، فالعالم منـذ قرون طويلة يزخـر

بالخيرات المادية من معادن وغابات وتربة صالحة للزراعة تفي بمتطلبات السكان من الغذاء واللباس ؛ ولكن عندما بدأ عدد السكان بالازدياد كان يجب ان تستثمر هذه الموارد بنفس الزيادة ، الا أنه لم يحصل مثل هـذا الامر لاسباب تتعلق بسوء استخدام الموارد الطبيعية من قبل الانسان ، بالاضافة الى التقسيم الدولي الراسمالي للعمل الذي ادى الى تكديس الثروة الاقتصادية في البلدان الرأسمالية المتقدمة على حساب الدول المستعمرة سابقا ، ولا يزال هذا العامل يؤدي نفس الدور عن طريق التجارة غير المتكافئة بين الدول المتخلفة والدول الرأسمالية المتطورة .

زيادة الانتاج من المواد الغذائية :

يعتقد بعض المختصين ان هناك امكانات متاحة لزيادة الانتاج من المواد الغذائية ويمكن بذلك ان يلبي الطلب العالمي ؛ وقد تقدم تيمونس ـ ١٩٦١ ـ بفكرة مفادها « ان توقعات الزيادة في الاستهلاك تعادل الزيادة في الانتاج » ومن الناحية العملية هذا هو الطريق الممكن والمتاح لتلافي النقص في الغذاء العالمي ، اذ تشير المعطيات الاحصائية الى ان معدل انتاج الذرة في العديد من الدول الافريقية هو اقل من الف كيلو غرام للهكتار الواحد ، بينما اثبتت محطات التجارب بأنه رفع الانتاج منها الى ضعف او ضعفين ، وبادخال العينات الاولية يمكن رفع المردود الى ٨٠٠٠ كغ في الهكتار الواحد ، وبالمثل فان انتاج الارز العالمي حاليا يبلغ ١/٥ او ١/٤ مما يمكن احرازه من اجل تحقيق انتاج اكبر ، وفي هذا المجال يمكن ايضا رفع معدلات الانتاج من الثروة الحيوانية كالابقار مثلا من ٦٧٤ ليترا الى ٤٠٠٠ لتر من الحليب سنويا ، بالاضافة الى اللحوم وغيرها وينسحب ذلك على بقية اجناس الماشية التي استأنسها الانسان ، وبتكثيف استخدام الطرق الحديثة في الزراعة والمعروفة حاليا كالاسمدة والمكننة الزراعية المتقدمة ، ومكافحة الآفات الزراعية من جانب الدول حديثة التطور ، بالتأكيد ستتحقق زيادة في الانتاج وان كان تحقيق مثل هذه الزيادة في الدول المتقدمة قد استنفدت الى حد ما ، لانها بلغت الذروة في مستوى انتاجية العمل الزراعي ولكن زيادة الانتاج من جانب الدول الفقيرة ليس

بالامر السهل لانه يتطلب امكانات مادية كبيرة قد لا تتوفر لها ، الا اذا ابدت الدول المتطورة الراسمالية رغبتها في مساعدتها بعيدا عن الابتزاز والاستغلال وفي اطار نظام دولي جديد يحقق مصالح جميع دول المعمورة .

التوسع في استثمار الاراضي القابلة للزراعة

تؤكد المعطيات الاحصائية أن ٤/٥ الاراضي الصالحة للزراعة عالميا والتي تصل مساحتها الى ١٦٠٠ مليون هكتار ، هي قيد الاستثمار ، الذي تناول الاراضي عالية الخصوبة نسبيا ، أما الاراضي المتبقية فتشمل الغابات الكثيفة والمناطق الصحراوية غير المأهولة بالسكان بالاضافة الى الاراضي رديئة الخصوبة والتي يمكن استصلاحها ، وبزيادة ١٠ ٪ من مساحة الاراضي القابلة للزراعة واستثمارها بشكل صحيح يمكن تلافي العجز الحالي في مصادر الغذاء العالمي .

البحث عن مصادر اخرى للغذاء

يمتلك الانسان قدرة فائقة على البحث والتنقيب عن الموارد الغذائية ، سيما عندما يتعلق الامر بوجوده على قيد الحياة ، فهناك مصادر متاحة حاليا لتلافي النقص الغذائي ، احدهما الثروة السمكية وحسن استخدامها والثاني الاحياء البحرية الدقيقة كالطحالب مثلا ، فالاسماك عندما تربى في احواض اصطناعية فانها تحقق مردودا انتاجيا اكبر من الهكتار المزروع مثلا بالخضراوات ، كما تحتوي على بروتين اكبر يمكن ان يسد النقص الحاصل في غذاء الشعوب كما ان فكرة الاستفادة من الحيوانات البحرية الدقيقة ليس بالشيء الجديد ، اذ يمكن تحويلها الى مادة غذائية بطريقتين:

ـ الاولى بالمعالجة واضافة مواد لها تعطيها نكهة ومذاقا خاصا يقبله الانسان .

ـ والثانية باستعمالها كغذاء للدواجن والخنازير والماشية .

وبالطبع تبقى امكانات الكشف عن مصادر غذائية بديلة محدودة وتحتاج الى تكاليف باهظة ، ويفترض ان لا تضيع وتبدد وتهدر الدول

المتقدمة جهودها الى قضايا غير مضمونة النتائج ، وان توظف امكاناتها وتقدمها التكنولوجي في خدمة البشرية جمعاء بمد يد العون والمساعدة الخالية من التسلط والسيطرة للدول الفقيرة التي لاتزال ثرواتها تحلم في باطن الارض وعلى سطحها من اجل تنميتها وتطويرها اقتصاديا واجتماعيا الامر الذي يحقق مزيدا من المصادر اللازمة لسد فجوة وخطر الامن الغذائي العالمي.علما ان مثل هذا الامر من غير المتوقع ان توافق عليه البلدان الراسمالية المتقدمة التي اخذت تستخدم « الامن الغذائي » كورقة رابحة بيدها ، وكسلاح سياسي لقمع حركات التحرر الوطني ، واكبر دليل على ذلك التصريحات التي يدلي بها بعض مسؤولي الولايات المتحدة الامريكية « بان امريكا لن تلجأ للتهديد بالقنبلة الذرية كما كانت تفعل في الخمسينات من هذا القرن ، وانما ستهدد العالم بحبة القمح » وجدير بنا أن نتذكر انه ابان حرب تشرين التحريرية ومارافقها من قطع امدادات النفط العربي عن الدول الاوربية والولايات المتحدة الامريكية كيف لوحت هذه الدول بتهديد معاكس ينطوي على ايقاف تصدير المنتجات الغذائية الى العرب ، واذا كانت اسباب الحروب تتضاءل يوما بعد يوم فان العالم في طريقه لان يشهد حربا من نوع آخر .. حربا اسمها حرب (الجوع والشبع) والتي يفترض ان تدرك ابعادها بعض الاقطار العربية التي لم تستكمل اندماجها القومي حتى الان مما يشكل احدى العوامل الرئيسية لسوء توزيع الثروات في الوطن العربي ، واحد العوامل في نقص الغذاء العربي .

واقع وآفاق تطور الامن الغذائي العربي :

يكفي للدلالة على نقص المواد الغذائية في الوطن العربي ان نشير فقط الى حجم الاستيراد والتصدير من المنتجات الغذائية ، ففي عام ١٩٧٠ كانت صادرات الاقطار العربية مجتمعة من السلع الغذائية تغطي مستورداتها منها ، اذ بلغ الاستيراد والتصدير على التوالي ١ر٧ ، ١ر٧ مليار دولار ، اي هناك توازن في التبادل السلعي للمواد الغذائية ، ولكن الامور لم تسر على هذا المنوال في منتصف السبعينات اذ حدثت فجوة في نسبة الصادرات الى المستوردات والتي بلغت ٨ر٢٧٪ فاستوردت الاقطار العربية بـ١٠٦٩٥

مليون دولار من المواد الغذائية لعام ١٩٧٨ بينما صدرت ولنفس العام منها بـ /٢٩٧٩/ مليون دولار .

وفي عام ١٩٨٠ استوردت الدول العربية ١٢ مليون طن من القمح ، ويتوقع ان يرتفع هذا الرقم في عام ٢٠٠٠ الى ٢٨ مليون طن ، كما استوردت من السكر مليوني طن ، ويتوقع ان يرتفع الاستيراد منه في عام ٢٠٠٠ الى ٦ر٣ مليون طن ، ومن اللحوم ايضا استوردت ولنفس العام ٥٦٢ الف طن ليرتفع الاستيراد منه في عام ٢٠٠٠ الى حوالي ٨ر١ مليون طن ، ومن الزيوت والدهون استوردت ولنفس العام ٧٥٨ الف طن ، ويتوقع ان يرتفع الاستيراد منها في عام ٢٠٠٠ الى حوالي ٨ر١ مليون طن(١) ، والاكثر من ذلك ان انتاجية العامل الزراعي العربي تقل من ٢٠ ـ ٢٥ مرة عن انتاجية العامل الزراعي في الدول الراسمالية المتطورة وانتاج الفلاح الواحد يكفي لتغذية اربعة افراد ، بينما في الدول المتقدمة يكفي لـ ١١١ فردا .

هذه المعطيات تؤكد لنا وبجلاء قصور الانتاج الزراعي العربي عن تلبية الطلب المحلي ، بسبب الاهمال الذي عانى منه القطاع الزراعي ، فالفجوة بين الاستيراد والتصدير تزداد سنة بعد أخرى ولصالح الاستيراد من المواد الغذائية ، الامر الذي يوضح ان هناك هوة سحيقة بين معدلات الانتاج التي تميل الى الانخفاض نسبيا مقارنة ، بمعدلات استهلاك من المنتجات الغذائية التي تسجل ارتفاعا ملحوظا ، وفي عام ١٩٧٠ كان هناك فائض في انتاج الحبوب يصل الى ٠ر٢ مليون طن وستحول هذا الفائض الى عجز في عام ١٩٨٥ يصل الى ٤ر٣ مليون طن ، وفي المحاصيل البقولية حقق الوطن العربي فائضا في الانتاج يصل ٣٣ر٠ مليون طن لينخفض في عام ١٩٨٥ الى ١٧ر٠ مليون طن . كذلك فان الفائض المحقق في انتاج الخضراوات عام ١٩٧٠ فان الاقطار العربية لا تنتج كل ما تستهلكه من مواد غذائية ، مما يؤدي الى زيادة تبعية الاقتصاد العربي للسوق العالمي .

(١) سالم توفيق النجف : التكامل الاقتصادي الزراعي العربي ـ المستقبل العربي نيسان ١٩٨٢ صفحة ٧٨ .

لقد ترتب على انخفاض معدلات الانتاج الزراعي الذي لم يعد يفي بالاحتياجات الاستهلاكية للمواطن العربي ، والتي يتم تأمينها بطريق الاستيراد ــ ترتب على ذلك انخفاض في متوسط نصيب الفرد في مصر من الحبوب والبطاطس والزيوت والدهون والسكر على التوالي : ٣٤٤ ــ ٢٢ر٦ ــ ١٧ر٢ ــ ١٩ر٠٠ وذلك في عام ١٩٧٧ بينما متوسط نصيب الفرد من نفس المواد في بريطانيا وعلى التوالي : ٤٥٦ر٠ ــ ١٢٧ر٠ ــ ٥٢ر٨ ــ ٥٠ر٨ لعام ١٩٧٧ ، أما نصيب الفرد في العراق من الاغذية البروتينية ــ اللحوم ــ البيض ــ الاسماك ــ اللبن ، فقد بلغت على التوالي : ١٤ر٣ ــ ٢ر٧ ــ ٢ر٢ ــ ٤١ر١ لعام ١٩٧٨ ليصل في ايطاليا ولنفس المواد والفترة ذاتها الى : ٦٩ر١ ــ ١١ر٨ ــ ١٢ر٦ ــ ١٨١ر٠ ، وفيما يتعلق بمتوسط نصيب الفرد من الطاقة (سعر) في مصر ٢٦٣١ ليرتفع في بريطانيا الى ٣٣٦٩ ومن البروتين (حجم) ٧ر٧١ وفي بريطانيا الى ٩١ر٩ وذلك في عام ١٩٧٨(١) .

هذه المعطيات تؤكد لنا بوضوح ان نصيب الفرد العربي من المنتجات الغذائية لايزال اقل بكثير مما يحصل عليه الفرد في الدول المتقدمة ، علما ان الاقطار العربية مجتمعة لديها من الامكانات والموارد الطبيعية الاقتصادية منها والبشرية والمناخية مايؤهلها لان تحقق اذا ماأحسن استثمار وتوظيف هذه الموارد في اطار تنمية شاملة ، تنطلق من منظور قومي على طريق التكامل الزراعي العربي ، لا من تنمية قطرية اقليمية ضيقة لاتفي بالغرض والغاية المرجوة ، كون اقتصاديات الوطن العربي وموارده تكمل بعضها البعض ، وبغياب التنسيق والتكامل بين اقطار الوطن العربي حدث ماحدث من (فجوة غذائية) وحزب البعث العربي الاشتراكي كان قد نبه وأشار واكد في دستوره مبادىء اساسية (الوطن العربي يشكل وحدة سياسية اقتصادية لا تتجزأ ، ولا يمكن لاي قطر من الاقطار العربية ان يستكمل شروط حياته بمعزل عن الاخر) ، من هنا كانت صيحة البعث عالية تلح

(١) د. محمد السيد عبد السلام : التكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية في الوطن العربي ص ٢٣ .

وتطالب بضرورات الاخذ بالتكامل الاقتصادي العربي ، بوصفه الاطار الطبيعي الذي يفترض ان تتحقق من خلاله عمليات التنسيق والتوحيد والدمج للاقتصاديات الوطنية للاقطار العربية من اجل بلوغ الاهداف الاقتصادية والاجتماعية التي ينشدها المواطن العربي .

التكامل الزراعي العربي كسبيل لتلافي ازمة او فجوة الامن الغذائي :

لو رجعنا قليلا الى الوراء لوجدنا ان البلاد العربية في مجملها بلاد زراعية حيث قامت في احواض انهارها اعظم المدنيات (وادي النيل ــ ودجلة والفرات) التي عرفها التاريخ ، ومازالت ارضها وسهولها تزخر بالخيرات التي لاتقل اهمية عن الثروات الباطنية ، وقد كانت الارض العربية تمون مخازن ومستودعات الامبراطوريات والممالك التي سادت قديما بالمحاصيل الزراعية ولقب سهل البقاع « باهراء الامبراطورية الرومانية » فالجزيرة والفرات كانت تجود على اطراف الامبراطورية الرومانية بخبزها اليومي ، وكذلك كانت دلتا النيل وحوض مابين النهرين تدر الحبوب والفواكه والخضار الى العديد من بلدان آسيا وافريقيا ، وبالرغم من فترة التخلف التي سادت الوطن العربي في اواخر العهد العثماني ، فان الزراعة العربية لم تعان من التدهور الا في اوائل القرن الحالي وعلى الاخص في مطلع السبعينات ، حين فاتها عصر المكننة الزراعية واستخدام الطرق الزراعية الحديثة في الاستثمار الزراعي .

فاليوم الوطن العربي من أكثر مناطق العالم عجزا عن اطعام نفسه نظرا لقصور الانتاج الزراعي وعدم كفايته للاحتياجات المحلية ، فبينما الزيادة السنوية في الانتاج تصل الى ٢٪ ، نجد ان معدلات الاستهلاك ترتفع بمعدل ٥٪ ومعدلات التكاثر السكاني تصل الى ٢ر٨٪ سنويا ، وهذا يعني قبل كل شيء الاعتماد على البلدان المصدرة للمواد الغذائية وزيادة تبعية الاقتصاد العربي للاقتصاد العالمي .

ان الخطأ الذي وقعت به الاقطار العربية بعد ان انتزعت استقلالها السياسي هو التفكير بالعبور من مرحلة الاقتصاد الزراعي الى مرحلة

الاقتصاد الصناعي ايمانا منها بأنه هو السبيل الذي يمكنها من زيادة دخلها القومي ورفع مستوى معيشة مواطنيها واللحاق بركب الامم التي سلكت هذا الطريق وحققت تقدمها الحضاري والانساني .

لقد وقع البعض في خطأ التقدير منطلقين من ان تحقيق التقدم الصناعي يقتضي الانصراف ولو مؤقتا عن الاهتمام بالقطاع الزراعي ، علما ان اية خطوات نمائية في بلد ما لابد وان تنطلق قبل كل شيء من الامكانات والموارد المتاحة لها ، أما الاعتماد على الدول الاخرى لتحقيق التنمية الاقتصادية يجب ان يأتي بالدرجة الثانية ، فطالما ان القاعدة الاقتصادية للدول العربية تتكون في مرحلتها الاولى من الاقتصاد الزراعي ، يلي ان يخص هذا القطاع بالاهتمام الكافي من قبل الحكومات العربية ، حتى يكون بمثابة القاعدة المتينة للانطلاق نحو المرحلة الثانية وهي تحقيق التطور الصناعي ، وهذا ماحدث بالفعل بالنسبة للدول الصناعية المتقدمة كانكلترا مثلا ، التي حققت ثورتها ، الصناعية بعد ان انطلقت من قاعدة زراعية متينة ، اي وصلت الى الصناعة عبر الزراعة ، واذا ماأردنا ان نستعرض الاوضاع الزراعية في الوطن العربي لتبين لنا من غير عناء ان قطاعها الزراعي يتسم بما يلي :

- تدني انتاجية العمل الزراعي

- وجود مساحات كبيرة من الاراضي غير المستصلحة والتي يمكن التوسع في زراعتها

- انتشار علاقات الاستثمار الاقطاعية المشوبة بالعلاقات الراسمالية في بعض الاقطار العربية .

- الافتقار الى نظام تسليف وتسويق زراعي منظم وفعال .

- عدم بث وتعميم الحركة التعاونية الزراعية بأبعادها المطلوبة .

وجدت هذه الخصائص السلبية انعكاسا لها على واقع وآفاق تطور الانتاج الزراعي مما ادى الى تدهورها ، وحصول مايسمى بالعجز الغذائي .

والسؤال المطروح هل يقوم كل قطر عربي بتنمية موارده الزراعية بمعزل عن الاقطار العربية الاخرى في الوقت الذي يتجه فيها عالمنا المعاصر نحو التكتل والتجمع ، ام ان مصلحة الامة العربية تقتضي ان تنسق سياساتها الزراعية .

ان الضرورات الوطنية والقومية تفرض مسألة التكامل الزراعي العربي نظرا للاسباب التالية :

١ ـ ان معدلات نمو الدخل حوالي ١ر٤ ٪ من اجمالي الدخول القومية للاقطار العربية ، ولايتيح لها ان تتحول بسرعة الى الاقتصاد الصناعي .

٢ ـ التكامل الزراعي العربي يقضي على المنافسة بين المنتجات الزراعية العربية والاسواق الخارجية ، كما يلغي اساليب الحماية التجارية التي تؤدي الى نتائج عكسية في اغلب الاحيان .

٣ ـ التكامل الزراعي العربي يقضي على تشتت وبعثرة الاسواق العربية كما يمكن من خلق سوق واسعة وقادرة على استيعاب فائض الانتاج الزراعي مستقبلا .

٤ ـ التكامل الزراعي العربي يساعد على استثمار تنوع المناخ العربي على نحو امثل فامتداد الاقطار العربية على ساحل البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندي ، يجعلها ذات ميزات لاتتوفر لغيرها من البلدان في مجال تنويع الانتاج الزراعي وتكامله .

في ضوء هذه الوقائع والمعطيات يتضح لنا مدى الترابط والتلاحم بين اجزاء الوطن العربي ، كما تتجلى الاهمية الاقتصادية والاجتماعية لتنمية الزراعة على المستوى القومي ، ولقد قطعت الدول العربية في هذا المجال خطوات متواضعة تحتاج الى دعم وتطوير ومنها : قيام « منظمة الزراعة العربية » التابعة لجامعة الدول العربية في مطلع السبعينات والتي اتخذت من الخرطوم مقرا رئيسيا لها وامتدت فروعها الى كافة الاقطار العربية ، وانبثق عنها مشروعات للتعاون الفني ومراكز البحوث مثل « المركز العربي لدراسات المناطق الجافة والاراضي القاحلة » بدمشق .

ومن بين أهم المشاريع التي تمولها منظمة الاغذية والزراعة « تحسين انتاجية المحاصيل الغذائية الرئيسية لدول الشرق الادنى وشمال افريقيا»، « المشروع الاقليمي لاستخدام الاراضي والمياه » ومقره بغداد ، « المشروع الاقليمي لبحوث النخيل والتمور » ، « المشروع الاقليمي للانتاج الحيواني والصحة الحيوانية » وبالتالي فان مهمة « المنظمة العربية للتنمية الزراعية » تتعلق بجمع ونشر المعلومات المتعلقة بالزراعة والاغذية وتتبع التطورات الدولية في المجال الزراعي والعمل على حماية المصالح العربية ، بالاضافة الى دعم الجهود المحلية والقومية في المجال الزراعي وخاصة فيما يتعلق بالبحوث العلمية والنهوض بالتعليم الزراعي وتقديم المعونة الفنية التي قد تطلبها الدول الاعضاء . الامر الذي يعني ان المنظمة **لا تسعى الى** تحقيق التنسيق والتكامل الزراعي بين اقطار الوطن العربي ، علما ان هناك مجالات زراعية عديدة يمكن للاقطار العربية ان تتكامل بين بعضها البعض وخاصة في شؤون الري ، كأن تتعاون مصر والسودان في استثمار مياه النيل وسورية والعراق في مياه نهر الفرات ،وذلك بانشاء مشاريع مشتركة تهدف الى استغلال هذه المياه على احسن وجه ، مما يمكن الدول العربية من توسيع الرقعة الزراعية ولابد ايضا من الاخذ بمبدأ التخصص في الانتاج الزراعي تبعا للظروف والامكانات المتاحة في كل قطر .

وفيما يتعلق بمجالات التكامل العربي بالثروة الحيوانية فهناك فرص كبيرة لان تطور هذه الثروة القومية سيما وان الوطن العربي يملك مساحات واسعة من المراعي الطبيعية تصل الى ١٧٢ مليون هكتار منها ٤٦ مليون هكتار لانتاج المحاصيل العلفية ، فضلا عن توفر المناخ المعتدل والمياه والامكانات المالية والبشرية اللازمة لتنمية الثروة الحيوانية التي لاتزال عاجزة بل قاصرة عن تلبية متطلبات المواطن العربي من احتياجات الغذاء ، الامر الذي يملي ضرورات التكامل العربي باتجاه :

١ ـ رسم سياسة هادفة وموجهة للتكامل الحيواني ، ترتكز مبدئيا على الدول العربية التي ترتفع فيها الكثافة الحيوانية كأن تخدم السودان والمغرب والعراق لتربية الماشية ، وتخصص الاقطار التي تطل على البحار بتطوير الثروة السمكية بالاضافة الى تخصيص سورية والمغرب والعراق بتربية الاغنام والماعز .

٢ ــ اعطاء الاولوية في تصدير واستيراد الانتاج الحيواني للاقطار العربية .

٣ ــ تحسين وتكثيف الانتاج الحيواني عن طريق توفير الرعاية الصحية وتأمين الاعلاف وتحسين السلالات الحيوانية .

٤ ــ المحافظة على ما تبقى من حيوانات وطيور برية واجراء دراسات متقدمة عنها .

٥ ــ القيام بمشاريع مشتركة جماعية كانت ام ثنائية كالمشروع الذي قام بين سورية وليبيا « المؤسسة العربية الليبية ــ السورية للتنمية الزراعية والصناعية » .

ولقد اقدمت « المؤسسة العربية لتنمية الثروة الحيوانية » على بعض المشاريع المتواضعة التي يمكن لها ان تساهم في تطوير الانتاج الحيواني العربي ، مما سيخفف من حدة نقص الغذاء في الوطن العربي .

من سياق هذا البحث نجد ان ازمة الامن الغذائي يمكن لها ان لاتقع وان لاتأخذ بعداً غير البعد الاقتصادي ، اذا ماأقدمت البلدان الفقيرة على القيام بمشاريع تؤهلها مواردها الطبيعية وطاقاتها البشرية على انجازها ومن خلال التعاون الاقتصادي القائم على المصلحة المشتركة والمنفعة المتبادلة . يمكن للدول الغنية أن تتصدى الى ازمة الامن الغذائي بمساعدة الدول حديثة التطور .

وبالنسبة لوطننا العربي الذي يعاني من نقص في المواد الغذائية ، فهو قادر على مواجهة هذه المشكلة اذا ماأخذ بالتكامل الزراعي العربي بعيداً عن التناقض والتناحر السياسي بين حكومات الاقطار العربية التي يفترض ان تخضع علاقاتها السياسية لصالحها الاقتصادية وان تقتدي بتجربة السوق الاوروبية المشتركة و« مجلس التعاضد الاقتصادي الاشتراكي » حيث لجأت هذه الدول الى التكتلات الاقتصادية لبلوغ معدلات عالية من التنمية ، فأقطار الوطن العربي تتوافر فيها جميع امكانات التكامل الاقتصادي من رؤوس اموال الى ايد عاملة ، الى موارد طبيعية قلما تتاح لغيرها من الدول . وباحراز التكامل الاقتصادي العربي لن تواجه امتنا العربية سوء التغذية فحسب وانما ستصبح قوة ثالثة في العالم يحسب لها حساب في مسائل « الحرب » و« السلم » .

عندما تقبح الصور في المرآة :

د. يحيى جبر

تعكس المرآة صور الاجسام التي تقع عليها حتى ان كانت هذه المرآ مكسورة او غبشاء وهي معذلك لا تريك بمفردها صورة لجسم لا يقع امامها ، او ان جسماً قبيحاً يقع امامها يمكن ان تعكسه في صورة جميلة .

وذلك عود مشدود الاوتار ، وتلك اصابع تتحرك عليه ، فتنبعث الالحان عذبة او مزعجة لكن هل تنبعث نفس الالحان لو كانت الاصابع غير الاصابع ؟ وهل هو الاصبع الذي يتحرك من تلقاء نفسه ام ان احدا يحركه ؟ والا فلماذا لم يكن الناس سواء في القدرة على العزف ؟

وكل انسان يقدر ان يبني .. وماشبه حجارة البناء بمفردات البناء اللغوي غير ان المباني لا تكون سواء ، وما ينبغي لها ، وما اشبه اللغة بالمباني والحجارة بالجسم المنعكس على المرآة ، والمرآة بالعقل الذي يوجه الاصابع للتحرك على العود ، وبالعود .

وقد نمل لحنا نسمعه كل يوم افنكسر العود ؟ وقد لا تعجبنا الصور المنعكسة عن المرآة افنكسرها ؟ وقد لا يعجبنا البناء فهل ننحى باللائمة على الحجارة ؟

ربما اكون بما فعلت قد اطلت ، غير ان ضرب المثل وتنويع وسائل الايضاح ضروريان لجلاء الامور ، ولا سيما ان كانت مما كثر فيه الحديث وطال امده ، وفي هذه الايام ، استمرار لما كان منذ عقود . مايزال بعض القاصرين « لغويا » يقذفون العربية في احاديثهم وكتاباتهم بالقصور ، زورا وبهتانا ، زاعمين تارة ان حرصهم عليها يدفعهم الى ذلك ، او داعين الى غيرها تارة اخرى ، ومنصبين من انفسهم اوصياء عليها ، وهم قاصرون ان من يلقي باللائمة على اللغة كالذي يلوم بيته لماذا كان ضيقا أو رسن حماره على قصره .

ظاهرة اجتماعية وحضارية

اللغة ، اولا ، ليست ملك فرد او افراد ، مهما كانت صفاتهم فيتخذوا من تجريحها مضغة يعكفون على علكها ،او في المقابل ، ينصبون انفسهم اولي امر لها،ذلك ان اللغة ظاهرة اجتماعية وحضارية حسب ماتنطق به وظائفها .

واللغة ثانيا ، ليست الفاظا نعبر بها عن علاقات ومسميات وافكار نتداولها او بها نرتبط ، لكنها قبل كل شيء ، علاقات ومسميات وافكار، لان الاصل في هذا المجال هو ان تكون الفكرة او المسمى ثم يكون اللفظ المعبر به عنها وعنه : الانسان قبل قميصه ، وفكرة السيارة قبل كلمة « السيارة » لدلالتها والمعنى قبل اللفظ ، والا لما كان ثم مجاز ولا تغير دلالي ، ولبقيت اللغة محددة بما تسمح به حروف المعجم لدلالته الاولى ؛ يكبر الانسان ... ويتغير ، وكذلك ملابسه ، تغير وتوسع أو توصل

... الخ والمعنى يتغير والدلالة تتغير .... وكذلك اللفظ يشتق منه او يزاد فيه او ينحت مع غيره .

وما دام الامر كذلك ، المرآة غير مسؤولة عن قبح الصورة التي تعكس ... ولا العود مسؤول عن رداءة اللحن ، ولا الحجارة عن رداءة المبنى فان اللغة هي الاخرى براء من القصور الذي ترمى به .. وقد يقال بل لتلكم ادوار وهي مسؤولة فتقول : الا بقدر ما تلمع امراة مرآتها زيادة عن جارتها ، وبقدر ما يعتني عواد بعوده ، وهكذا ، وبقدر ما تكون المرآة والعود والحجارة فاسدة لو كانت تملك من الامر شيئا .

اللغة هي ذلك الوعاء ، ان كان ملآنا او فارغا او مخروما فانت المسؤول عن حاله وعما فيه ، وهي تلك الاوتار ... انت المسؤول عن جمال اللحن وقبحه وليس الاوتار .. لانها وحدها لاتعزف لحنا ولا تملك من الامر شيئا .

وكيف يريد هؤلاء اللغة ان تتقدم والمجتمع العربي غارق في التخلف ، نعم ، غارق في التخلف بالرغم من كثرة السيارات والاجهزة والآلات ... وبالرغم من ادوات التجميل والتلميع وبالرغم من اتساع الشوارع وتوطين البدو وتنوير الارياف .... بالرغم من كثرة المواد المعلبة .. والكتب المغلفة والمدارس المفتحة ، والبرامج المكثفة .

ان التقدم المنشود .. الذي يكون من نتائجه تقدم اللغة ، وقدرتها على التعبير عن متطلبات الحياة العصرية ، ينبغي ان يكون ذاتيا من جذوره الى ثماره ، وهذا لا يعني ان نغلق الباب في وجه الحضارة الوافدة بقدر مانعني به ضرورة اعادة النظر في العلل الكامنة وراء التخلف العربي ومراجعة النفس ، والاستجابة للتحديات . انا اشبه بالفراش : غرق في النور فاحترق في النار ، وهكذا نحن في جرينا وراء اسباب الحضارة المادية : نستهلك منتجاتها ولا نساهم فيها ، نقلد في كل شيء ونتخلى عن كل شيء ، فاذا بنا في حال من الضياع المطلق ، ولا يحدد مواقعنا ومشاكلنا الا القرش واللذة المادية ... ونريد بعد ذلك للسيارة ان تسير .. وللعود ان يعزف

لحنا ولغتنا ان تعبر عن افكار وعلاقات لم نبدعها ... كمصطلحات تستخدم في العلوم ونحوها مما جد عند الغربيين او الشرقيين ، فيا لها من مجتمعات استهلاكية ، حتى حاجاتها الضرورية .. والتافهة التي تجعل ضرورية .. تحدد لهم وتخلق ، دون ان يكون لهم في ذلك ادنى دور .

لم يكن عرب الجاهلية يعرفون كلمة « الكحول » لمعناها الذي عرفه لها احفادهم من بعد .. حين اجتهدوا في البحث والترجمة ، فابتدعوا مركبا جديدا ، والبسوه ثوبا من الفاظهم ساعة ولادته ، وهكذا فعل الغرب فيما يتعلق بالتلفزيون والرادار والكمبيوتر وغيرها .

وليست العربية مطالبة بالتعبير عن افكار غير العرب او مشاعرهم ، لان لهم لغاتهم التي يعتزون بها .. على العكس منا في ذلك ، ومن ذا الذي يطلب من النهر سمكا ملحا ؟ ولذلك نقول لهؤلاء فكروا بطريقة عربية تجدوا العربية طوع السنتكم .

النحو والصرف والبلاغة :

هذا في مجال التعبير وبيان الخلل الذي يجهله المفرطون او يتجاهلونه .. اما عسر اللغة في نحوها وصرفها وبلاغتها ... فثمة امور ينبغي ان يحاط بها ، وتتلخص في ضرورة اعادة النظر في المناهج المدرسية بحيث تقام على اساس من ان معرفة القواعد النحوية والصرفية والبلاغية .... وتعلمها ليس السبيل المثالي ولا الممكن الوحيد الذي يؤدي الى اتقان العربية ، ولا بد في هذا المجال من اخذ الحقائق التالية في الاعتبار وهي :

اولا : لم « توضع » تلكم القواعد اصلا لما تستخدم له الان ، حيث كان العرب ، من قبل ، يجهلونها ، ولكنهم كانوا يتقنون لغتهم ، وهي لم توضع ابتداء الا لحفظ اللسان العربي من الاثار السلبية التي لحقت به من جراء الاختلاط بغير العرب من المسلمين ، ولتعليم هؤلاء العربية ، لغة الدين والدولة وفي هذا ما يفسر الظاهرة التي تتمثل في كون عدد لاباس به من النحاة والاساسيين من غير العرب في الاصل ، اذا ، فهي انما وضعت لغير العرب ابتداء ، الا ان تكون عروبة اليوم موضع شك .

ثانيا : ان كثيرا من تلك القواعد ، ولا سيما ما كان لاحقا ، وكثيرا من كتبها من شروح وتلخيصات ومتون ونحوها، هي نتاج الترف الفكري الذي شهده العالم الاسلامي في العصور العباسية ، وان منها ما ليس له من الاهمية ما يؤهله لان يعلم ، فهو تكرار التكرار ، ومضغ الماء ، وافراط في التشعيب كالتفريط في الغاية .. حتى لكأن معرفة النحو وغيره من علوم العربية غاية وهدف وليست وسيلة لمعرفة اللغة ذاتها .

ثالثا : تأثرت القواعد النحوية والبلاغية ، الى حد كبير ، بالمدارس الفقهية والكلامية ، والصراعات الفكرية والسياسية التي استفحل امرها في تلك الحقبة ، الامر الذي تشهد به مسائل الخلاف بين المدارس المختلفة وبين النحاة في المدرسة الواحدة احيانا ، ولست اراني في حاجة لضرب المثل فالامثلة من الكثرة بحيث تكاد لا تحصى .

رابعا : ان بعض القواعد النحوية يمكن ان تسقط برمتها دون ان يؤدي ذلك الى خلل في نظام اللغة ونحوها ، او الى ثغرة في هندستها ، كالقواعد التي تتعلق باحوال الاسم بعد لاسيما ، وبعد كم ، من حيث جواز الرفع والنصب والجر ، وبعض احوال فاعل نعم وبئس .

خامسا : لقد افسدت القواعد البلاغية اللغة ، وقيدتها ، فقعدت بها عن الخلق والابداع ، ومالت بها الى الصنعة والتكلف والتزويق على حساب المعاني ، ومن منا ينكر دور « البديع » في افساد الاساليب الكتابية في « القرون الوسطى » الى بداية هذا القرن .. وهو والعروض وتفاعيله في افساد الشعر : .. على الاقل ، بتطاول المتشاعرين والذين والذين يأخذون بالرخصة ـ عليه .

نتائج الخلل المنطقي :

ونحن اليوم بمنهجنا في اعتماد قواعد النحو والصرف والبلاغة ، وتقديس بعضنا لها ـ وهذه ليست دعوة لتركها ـ انما نكون كمن يجعل

من نفسه رهين فكرة ما ، فهي محبسه والمسيطر عليه الموجه له ؛ اننا بهذا نعرض انفسنا لنتائج الخلل المنطقي الذي يترتب على ذلك . والوجه الامثل ، من وجهة نظر طبيعية ، هو ان نعود الى ما كانت عليه الحال قبل وضع تلك القواعد وذلك بالاعتماد على النصوص الفصيحة ، والتدريب عن طريق المشافهة ، وتوظيف الفصيحة في التداول والتعامل لتنمية السليقة ، بل لخلقها واعادة تكوينها .

ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن متعلما ، ولما ارسله ذووه الى البادية ليتعلم الفصاحة ، لم يكن في البدو معلمون في ذلك التخصص وعندما قرض شعراء الجاهلية ، وشعراء صدر الاسلام من بعدها اشعارهم لم يكونوا يعرفون عروض الخليل ولا قواعد سيبويه .

وانا بهذا لا اغمط اشياخنا الاوائل حقهم ، ولا اقلل من شأنهم ، وانما اعترف بفضلهم فيما اجتهدوا واستنبطوا ، واقلل من شأننا نحن اللاحقين العالة المتواكلين .

ولست ادعو بذلك الى التحلل من تقاليد العربية ونظامها ، وانما ادعو الى تمكين اهلها والناشئة من التفاعل معها بحيث تصبح حبيبة الى النفس كما ينبغي ، وسهلة مطواعا تستجيب لهم ... الامر الذي يتطلب منهم ان يقوموا بالمبادرة الكبيرة ، وذلك بأن يحققوا ذاتهم وينقذوها من التميع ويرسوا اوتادهم ، ويقوم عمادهم ، وترتفع بيوتهم ، وبذلك « تتطور » لغتهم كنتيجة حتمية لتطورهم ، وبا لاؤلئك الذين يرون التقدم في استهلاك منتجات الحضارة المادية واستعمالها تقدما على طريق التحضر ، أن هو الا دس للرؤوس في الرمل ، وورم خبيث لا شحم .

ان المهارات اللغوية التي يوجه اهتمام الطلبة اليها وكثرة الساعات الدراسية ، لا تمكن الطالب فيما بعد من اتقان اللغة ، ذلك للاسلوب الذي تقدم به المعلومات ، ولان تلك المعلومات لا تتجاوز افاق اللغة الى

اعماقها واغوارها ، وليس في الدراسات الافقية في هندسة اللغة نحوها وصرفها وبلاغتها وعروضها ما يغني عن الدراسات العمودية التي تمكن الانسان من الخلق والابداع نظرا لانها تقفه على اسرار اللغة وما وراءها من علاقات ، وهذا يقتضي ان يركز على النصوص والمعاني وتحليلها بطريقة رياضية تمهد لجعل اللغة ارقاما حسابية دقيقة ، وهذا لا يتحقق الا بتوحيد دلالات تلك الارقام في النفوس عن طريق خلق بيئة ثقافية موحدة فلا تكون عقلية « س » نتاج تأثيرات بيئية ثقافية وافدة ، وعقلية « ص » نتاج تأثيرات اخرى ، الامر الذي يؤدي الى تمزق الوحدة اللغوية .

والخلق ، الذي هو السبيل الوحيد للتقدم ، لا يتم بالمعاني المفردة ولكن بالمعاني المركبة والعلاقات التي تنظمها وتفرزها ، ومكان هـذه النصوص ، وللقيام بهذه المهمة وترسيخها لا بد من التركيز على النصوص وتحليلها ، اذ لا قيمة لجملة او لعبارة في غير موقعها من نص ما ، تماما كالحجر في بناء ، وقل مثل ذلك بالنسبة للمعاني ، لا قيمة للمعنى ما لم يكن ممارسا وحيا في النفوس .

وان العربية ، بالرغم من كل ما تقدم من ثغرات في مناهج تدريسها وفي بعض ما وضع لها من قواعد ، وبالرغم من ان اهلها لا يولونها العناية الكافية ، وبالرغم من التخلف العربي .. الا انها تظل قريبة من كل من تعلق بها وبتراثها ، ومن كل من تشكلت عقليته في ظلال ذلك التراث المجيد وتظل ايسر من سواها ... ولكن للذين يغمزون جانبها مآرب اخرى .

★ ★ ★